الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République algérienne démocratique et populaire
وزارة التـعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique
جامعة 8 ماي 1945 قالمة
UNIVERSITE 8 MAI 1945 GUELMA
كلية الآداب واللغات
FACULTE : des lettres et des langues
قسم اللغة والأدب العربي
Département langue et lettre arabe

الرقم: .....
N°:.....

مذكرة مقدمة لنيل شهادة

الماستـــــــــر

(تخصص أدب جزائري)

صورة مدينة قسنطينة في رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي–دراسة أنثرويولوجية–

مقدمة من قبل الطالبة: سلمى بن حمدي

تاريخ المناقشة: 24 جوان 2018

الإسم واللقب	الرتبة	الصفة
عبد الحليم مخالفة	أستاذ مساعد – أ –	رئيسا
حنان بن قيراط	أستاذ مساعد – أ –	مشرفا ومقررا
وردة حلاسي	أستاذ محاضر – ب –	ممتحنا

السنة الجامعية: 2018/2017

إهداء

ها نحن اليوم والحمد لله نطوي سهر الليالي وتعب الأيام وخلاصة مشوارنا،

بين صفحات هذا العمل المتواضع الذي أهديه إلى كل

من له مكانة في قلبي.

إلى من كلّله الله بالهيبة والوقار إلى من علمني العطاء بدون انتظار،

إلى من أحمل اسمه بكل افتخار "**أبي العزيز**"

إلى ملاكي في الحياة، إلى معنى الحب ومعنى الحنان إلى بسمة الحياة وسر الوجود إلى

من كان دعاؤها سر نجاحي "**أمي العزيزة**"

إلى من عرفت معها معنى الحياة، إلى منبع الفرح والسرور أختي الغالية

" **دنيا**"

إلى توأم روحي ورفيق دربي إلى سندي في هذه الحياة أخي العزيز

إسلام

إلى من كتبه الله لأتم معه نصف الدين إلى القلب الحنون الطيب

خطيبي "**جابر**"

إلى من سرنا سويا ونحن نشق طريق النجاح، إلى من عرفت كيف أجدهم

وعلّموني أن لا أضيّعهم صديقاتي " **مريم. نجاة .هاجر**"

إلى كل أفراد عائلتي كل باسمه.

سلمى

شكر وعرفان

بكل الحب والوفاء، وبأرقِّ كلمات الشكر والثناء

أشكر الله وأحمده، رب العالمين لأنه وفقني لإتمام

هذا البحث

ثم أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذة الفاضلة **حنان بن قيراط**

التي لم تبخل عليّ بتوجيهاتها الدائمة، ونصائحها القيمة، ووقتها الثمين،

لك مني أستاذتي كل التقدير والاحترام.

كما أتقدم بالشكر إلى الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة، إلى كل أساتذتي

الأفاضل، وعلى رأسهم الأستاذة **راوية شاوي**

وأخيرا أتقدم بالشكر إلى كل من مدّ لي يد العون من قريب أو من بعيد ولو بكلمة

طيبة، فالشكر والعرفان بالجميل واجب لابد من آدائه.

سلمى

مقدمة

حظيت تيمة المدينة بمكانة مرموقة في الساحة الأدبية الغربية والعربية على حد سواء فقد فرضت نفسها على الأدب بشكل عام وعلى الرواية بشكل خاص، وأصبحت العلاقة العلاقة بين المدينة والرواية متينة، إلى درجة أن بعض النّقاد عدّوا الرواية كائن مدينيٌّ. والرواية الجزائرية ليست بمنأى عن ذلك إذ اتّخذت هي الأخرى من المدينة مسرحًا تدور فيه شخصياتها وأحداثها؛ وظهرت ملامحها من خلال الإشارة إلى مختلف معالمها الحضارية والتوبغرافية.

ومن المدن الجزائرية التي كان لها النّصيب الأوفر من البروز في الرواية الجزائرية، مدينة العلم والعلماء والهوى والهواء مدينة قسنطينة، هذه المدينة الفريدة من نوعها، حباها الخالق عزّ وجل بجمال بديع وطبيعة ساحرة .

تعد هذه المدينة من أعرق المدن الجزائرية، جذورها ضاربة في أعماق التاريخ، تعاقبت عليها العديد من الحضارات التي سجلت تاريخها بأحرف من ذهب، مازالت إلى اليوم مصدر إلهام الأدباء والشعراء، فقد تغنى بمجدها الكثيرون على مرّ العصور والأجيال.

ومن الروايات الجزائرية التي خلّدت هذه المدينة الأسطورية رواية "**جسر للبوح وآخر للحنين**" للأديبة الجزائرية "**زهور ونيسي**"، وقد آثرنا اختيار هذه الرواية لما تتضمنه من ملامح بارزة حول صورة المدينة وتاريخها العريق، إذ تجلت لنا بوضوح معالم المدينة من جسور، وأبواب، وأحياء، وجوامع...، كما تجلى لنا أيضا جانب من تراثها الثقافي والمتعلق بعاداتها، وتقاليدها، ومعتقداتها، وطقوسها التي تتميز بها.

ومن بين الدوافع التي جعلتنا نختار هذا الموضوع، دوافع ذاتية وأخرى موضوعية أمّا عن الذاتية فتمثلت فيما يلي:

- اهتمامنا بالرواية لما لها من مقومات فنية، وجمالية.
- شغفنا بالتعرف أكثر على مدينة قسنطينة، مدينة الجسور المعلقة.

- وكذا الإطلاع على علم الأنثروبولوجيا وكيفية تطبيقه على النّصوص الأدبية.

أما الدّوافع الموضوعية فتمثلت في:

- تسليط الضّوء على الأديبة وروايتها التي لم تنل حظها من الدراسة في الجامعة الجزائرية.
- وكذا تسليط الضّوء على موضوع حضور المدينة في الأدب الجزائري خاصة مدينة قسنطينة.

وقد حاولنا اتّباع خطة قسمناها إلى مدخل، وفصلين، تتقدّمهم مقدّمة، وتذيّلهم خاتمة.

أمّا المدخل فقد جاء بعنوان "**الأنثروبولوجيا المفهوم والنشأة**" ضمناه مفاهيم خاصة بعلم الأنثروبولوجيا، وقد جاء كالآتي:

- مفهوم الأنثروبولوجيا (لغة/ واصطلاحا).
- المسارات التاريخية لعلم الأنثروبولوجيا.
- فروع علم الأنثروبولوجيا.
- علاقة علم الأنثروبولوجيا بالأدب.

أمّا الفصل الأول فقد جاء بعنوان "**صورة قسنطينة في الأدب الجزائري**" تطرقنا فيه إلى ضبط بعض المفاهيم وتناولنا فيه:

- تعريف المدينة (لغة / اصطلاحا).
- أهمية المدينة في الأدب العربي (قديما وحديثا).
- التعريف بمدينة قسنطينة (موقعها/ أصل تسميتها/ أهم المحطات في تاريخها).
- صورة قسنطينة في الأدب الجزائري: (في الشعر/ في الرواية/ في أدب الرحلات).

في حين جاء الفصل الثاني بعنوان "**صورة قسنطينة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين**" "**لزهور ونيسي**" تناولنا فيه:

- الصورة التوبغرافية لمدينة قسنطينة (الأحياء/ والمعالم الدينية والبناءات/ المناظر الطبيعية).
- الصورة البشرية لمدينة قسنطينة (العادات والتقاليد/ المعتقدات/ الطقوس/ الزواج واللباس).
- أثر صورة قسنطينة في الرواية (وصف المدينة وتحولاتها/ تحولات المدينة عبر تسلسل الأحداث/ نظرة البطل إلى المدينة/ نظرة المجتمع القسنطيني لليهود).

وقد ارتأينا استعمال المنهج الأنثروبولوجي لتناسبه مع هذه الدراسة؛ حيث وسمنا بحثنا بـ"**صورة مدينة قسنطينة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين – دراسة أنثروبولوجية–**" "**لزهور ونيسي**" حاولنا من خلاله الإجابة عن إشكالية رئيسية تمثلت في: كيف تجلّت صورة مدينة قسنطينة وحضورها في الرواية؟ أعقبتها إشكاليات فرعية متعلقة بحضور المدينة في الأدب (العربي والجزائري) وقد جاءت كالآتي:

- ما أهمية توظيف المدينة في الأدب العربي؟ وكيف كانت نظرة الأدباء إليها؟.
- كيف تجلت صورة قسنطينة في الأدب الجزائري ؟ وكيف صوّرها الأدباء الجزائريون؟.

وقد اعتمدنا مجموعة من المراجع منها: "مدخل إلى علم الإنسان" **لعيسى الشماس**، "قصة الأنثروبولوجيا" **لحسين فهيم**، "دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر" **لقادة عقاق**، "مدينة قسنطينة في أدب الرحلات" **لعبد الحفيظ بورايو** (مذكرة ماجستير)، "مدينة قسنطينة دراسة في جغرافية العمران" **لمحمد الهادي العروق**.

وكأي بحث أكاديمي فقد واجهتنا بعض العراقيل والصعوبات أهمها، قلة المراجع في مكتبة الكلية، وصعوبة الحصول على بعض الكتب الإلكترونية، وقلّة الدراسات حول الرواية،

لكنّنا حاولنا تخطّيها والإلمام بجوانب الموضوع، فإن وفقنا فذلك من الله، وإن أخفقنا فذلك من أنفسنا، والله ولي التوفيق.

وفي الأخير أتوجه بفائق الشكر والتقدير إلى أستاذتي المشرفة **حنان بن قيراط** التي رافقتنا في مشوارنا البحثي ولم تبخل علينا بجهدها ووقتها ونصائحها القيّمة التي كانت دليلنا في هذا البحث.

مدخل: علم الأنثروبولوجيا

المفهوم والنشأة

أولا: مفهوم الأنثروبولوجيا

ثانيا: المسارات التاريخية للأنثروبولوجيا

ثالثا: فروع الأنثروبولوجيا

رابعا: علاقة الأنثروبولوجيا بالأدب

تمهيد:

تعتبر العلوم الإنسانية بصفة عامة، من أهم الركائز الأساسية التي يُعتمد عليها في فهم الإنسان الذي يعد بؤرة اهتمامها، فمنها ما يدرس الإنسان كوحدة بيولوجية حيث يسلط الضوء على جوانب محددة من جوانبه خاصة فيما يتعلق بعملية حياته ووظائف أعضائه التي تكون جسمه، ومنها ما يدرسه باعتباره جزءا من المجتمع الذي ينتمي إليه بحيث تهتم هذه الدراسات بالحياة الاجتماعية للإنسان ومن ثم النظم الاجتماعية التي ابتكرها هذا الإنسان سواء كانت هذه النظم اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية أم دينية أم صناعية، ومنها ما يسلط الضوء على الإنسان باعتباره الكائن الوحيد الحامل للثقافة التي تتشكل من خلال قيمه، ومبادئه، وسلوكياته، وعاداته، وتقاليده...

ومن العلومِ الإنسانيّة التي لاقت رواجًا وشهرةً واسعةً في مجال الدراسات الأكاديمية "**علم الأنثروبولوجيا**"، وهو علم حديث النشأة، لكن هدفه لا يختلف عن هدف العلوم الإنسانية الأخرى، إذ يهدف هو الآخر إلى سبر أغوار الظاهرة البشريّة.

فما هو علم الأنثروبولوجيا؟ وكيف نشأ هذا العلم؟ وما هي مراحل تطوره؟ وما هي أقسامه؟ وفيما تتمثل العلاقة التي تربطه بالأدب؟.

أولا: مفهوم الأنثروبولوجيا:

أوجد المصطلح لنفسه مكانة مرموقة في الساحة النقدية المعاصرة حيث بدأت هذه الأخيرة تستشعر أهميته فخصّته بالبحث والدراسة، باعتبار أنّ المصطلح هو عمدة الخطاب ومفتاح النص وبه تتحقق عملية التواصل بين المبدع والمتلقي.

لذلك ارتأينا أن نقف في بداية الأمر عند حدود مصطلح "**الأنثروبولوجيا**"، هذا العلم الغزير والمتشعب وكما هو متعارف عليه فإنّ هناك شكلين من التعريفات: تعريف اشتقاقي لغوي، وآخر اصطلاحي، وأول ما نبدأ به من الناحية المنهجية هو التعريف الاشتقاقي أو اللغوي، فما معنى كلمة "أنثروبولوجيا" لغويا؟

أ- المفهوم اللغوي:

يرتكز المفهوم اللغوي للأنثروبولوجيا "anthropologie" على توضيح الجذر اللغوي لهذا المصطلح، إذ هو مصطلح لاتيني مؤلف من مقطعين "أنثروبوس anthropos" ويعني الإنسان، و"لوجوس logos" ويعني علم، ومن هنا فإن الأنثروبولوجيا يعني علم الإنسان "science man"[1] ؛ أي العلم الذي يختص بدراسة الإنسان من مختلف جوانبه، وهذا ما جاء في قاموس **Le Robert** « anthropologie n.f.Ensemble des sciences qui étudient l'homme, les groupes humains. »[2]

والحقيقة أنّ ترجمة المصطلح إلى اللغة العربية أثبتت عدم جدواها واتّضح أنه أمر غير علمي، لأنه لا يقدم تسمية كاشفة دالة، فهناك علوم أخرى كثيرة تدرس الإنسان (كالتاريخ، وعلم الاجتماع وعلم النفس، والبيولوجيا الإنسانية... إلخ)، لهذا السبب العلمي آثر

[1] عبد الله عبد الغني غانم، الأنثروبولوجيا الثقافية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006، ص 09.

[2] Karol Goskrzynski,et autres, Le dictionnaires Le Robert, avenue Pierre-de-Coubertin,paris, 2011, p20.

علماء الأنثروبولوجيا العرب الإبقاء على تسمية العلم كما هو في لغته الأصلية، دون ترجمته[1]. ففي كثير من الأحيان من الأفضل الإبقاء على التسمية كما هي في اللغة الأصلية حتى لا يحدث خلط بين العلوم الأخرى.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

اختلف العلماء في وضع مفهوم موّحد لعلم الأنثروبولوجيا، وذلك لتشعبه وتفرّعه حيث تباينت مفاهيمه من عالِم لآخر، ومن باحث لآخر.

فهناك من يعرفه بأنّه: «**العلم الذي يدرس جسم الإنسان سواء من حيث صفاته ومقاييسه، أو من حيث أسلافه وأجداده الأوائل**»[2]. يركز هذا التعريف على فرع من فروع الأنثروبولوجيا، وهو فرع الأنثروبولوجيا العضوية أو البيولوجية الذي يهتم بالجانب البيولوجي للإنسان، كما يهتم بتصنيف السلالات البشرية القديمة.

ويُعرّف أيضا بأنّه: «**دراسة الخصائص الاجتماعية والثقافية للإنسان بمجملها**»[3]. أما هذا التعريف فيركز على فرعين آخرين من الأنثروبولوجيا وهي الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية.

ويقول "**حسين فهيم**" في معرض حديثه عن الأنثروبولوجيا أنه قرأ لأحد الأنثروبولوجيين الأمريكيين أنه: «**ربما تكون أفضل طريقة لتعريف الأنثروبولوجيا هي أن نقدم للقارئ فكرة عما يفعله الأنثروبولوجيون، وفي هذا الصدد كتبت الباحثة "مارغريت**

---

[1] محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 2007، ص 18.

[2] زكي محمد إسماعيل، الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي، دار الزهراء، الرياض، السعودية، ط2، 2002، ص 14.

[3] فيليب لابورت، تولراجان، وبيار فارنيه، إثنولوجيا أنثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 07.

ميد" M/ Med (1901- 1979) تقول: نحن نصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة، كما تهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجيا (...)، وبصفة عامة فنحن الأنثروبولوجيون نسعى إلى ربط وتفسير نتائج دراستنا في إطار نظريات التطور، أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر».[1]

يعبّر هذا النص عن أهمّ العمليات التي يقوم بها الأنثروبولوجيون (الوصف والتحليل ثم تفسير النتائج)، كما يتضمن أهم مجالات الأنثروبولوجيا وهي دراسة وتحليل الصفات البيولوجية والثقافية للإنسان، وكذا دراسة نظمه الاجتماعية.

كما عُرّف أيضا بأنّه: «**ذلك العلم الشمولي الذي يدرس الإنسان وأعماله، التي تتمحور أبحاثه حول طبيعة الإنسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني**»[2]، فعلم الأنثروبولوجيا من خلال هذا القول علم شامل يدرس مختلف جوانب الإنسان وسلوكاته، باعتباره كائنًا ينتمي إلى العالم الحيواني.

ويعرّفه الباحث الأنثروبولوجي "**ليفي ستراوس**" بأنه «**نسق للتفسير يضع في الاعتبار النواحي الفيزيقية والسيكولوجية والاجتماعية لكل أنواع السلوك**»[3]، فهو علم تفسيري لمختلف مظاهر السلوك الإنساني، وكذا مختلف الجوانب الحياتية التي تخص الإنسان، سواء من الناحية البيولوجية أو الاجتماعية أو الثقافية.

---

[1] حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا (فصول في تاريخ علم الإنسان)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، (دط)، 1986، ص 13.

[2] نبيل الحسني، الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، كربلاء، العراق، ط1، 2009، ص 15.

[3] عبد الوهاب جعفر، البنيوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها، دار المعارف، الاسكندرية،مصر، (دط)، 1980، ص 27.

فالأنثروبولوجيا علم «**يدرس الإنسان بشكل عام وتقسم إلى أنثروبولوجيا طبيعية في مظهره البيولوجي، وإلى أنثروبولوجيا اجتماعية وثقافية، حيث هاتين الأخيرتين تعنى بالطريقة التي تطوّرت فيها اللغات على مر الزمان والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية**».[1] ركز هذا التعريف على تقسيم الأنثروبولوجيا إلى قسمين رئيسيين هما: الأنثروبولوجيا الطبيعية والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ثم بين أهم اهتمامات القسم الثاني وخصائصه.

على الرغم من كثرة وتعدد مفاهيم الأنثروبولوجيا، فإنّها تصب في مصب واحد، وهو دراسة الإنسان من مختلف جوانبه الحياتية، فالإنسان هو بؤرة اهتمامها، كما اشتركت معظم التعاريف في عرض فروع الأنثروبولوجيا وخصائص كل فرع منها (الطبيعية، الاجتماعية، الثقافية).

ثانيا: المسارات التاريخية للأنثروبولوجيا:

يعتبر علم الأنثروبولوجيا من أحدث العلوم الإنسانيّة على الساحة العلمية، حيث أن بواكيره كعلم مستقل بذاته لم تظهر إلا أواخر القرن التاسع عشر، لكن الاهتمام بالحضارات الإنسانية وثقافات الشعوب قد ذاع صيتها منذ القديم، من خلال مفكرين وباحثين حاولوا فهم الطبيعة البشرية والإجابة عن سؤال جوهري طالما سكن تفكيرهم وهو: ما هو الإنسان؟.

1- الأنثروبولوجيا في العصر القديم:

أدّت الرحلات التجارية والاستكشافية منذ عصور ما قبل التاريخ دورا بارزًا في تعرّف الشعوب على بعضها البعض، خاصة فيما تعلق بالثقافة واللّغة والعادات والتقاليد، ومختلف مظاهر الحياة.

[1] مارك أوجيه، وجان بول كولاين، الأنثروبولوجيا، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 07.

1-1- الأنثروبولوجيا عند الإغريق (اليونانيين القدماء):

من الرّحالة القدماء الذين عُرفوا في عصور ما قبل الميلاد، المؤرّخ والرّحالة اليوناني "**هيرودوتس Herodotus**" (عاش في القرن الخامس ق. م)، الذي يعتبره جل مؤرخي الأنثروبولوجيا الباحث الأنثروبولوجي الأول في التاريخ. «**ويرجع السبب في ذلك إلى أنه كان قد جمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوربية، حيث تناول تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية**»[1]، وقد تعددت رحلاته إلى بلدان مختلفة، صوّر من خلالها عادات شعوبها وتقاليدها، فهو «**أول من صور أحلام الشعوب وعاداتهم، وطرح فكرة وجود التنوع والفوارق فيما بينها**»[2].

ومن الشعوب التي زارها "**هيرودوتس**" الشّعب المصري، حيث يقول في وصف هذا الشعب في كتابه المعنون بـ "**التواريخ**": «**وفي غير مصر يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أما في مصر فيحلقونها، ويقضي العرف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم أثناء الحداد، ولكن المصريين إذا نزلت ساحتهم محنة الموت يطلقون شعر الرأس واللحية**».[3]

ويقول أيضا في وصف قبائل البدو بليبيا، من ناحية أصولهم العرقية وطريقة حياتهم: «**في ليبيا أربعة أجناس، اثنين أهل البلد الأصليين هم الليبيون الذين يحتلون المنطقة الشمالية، والأثيوبيون الذين يحتلون الأجزاء الجنوبية من البلد، أما بقية الأجناس الأخرى الوافدة هم الفينيقيون واليونانيون**».[4]

---

[1] حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا(فصول في تاريخ الإنسان)، مرجع سابق، ص 34.

[2] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، (دط)، 2004، ص 14.

[3] حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا(فصول في تاريخ الإنسان)، مرجع سابق، ص 35.

[4] المرجع نفسه، ص 35.

ورد في كتاب "**التواريخ**" ملاحظات حول النظام الاجتماعي لأحد الشعوب التي زارها حيث يقول: «**لهم عادة واحدة يختلفون فيها عن جميع أمم العالم الأخرى، فإنهم يتخذون اسم الأم وليس الأب، فإذا سألت أحد اللّايسيين من هو؟ أجابك بإعطاء اسمه الخاص ثم اسم أمه وهكذا على خط النسب الأنثوي (...)**»[1]فهذا المجتمع مجتمع أموسي يرجحون فيه حق الأم في النسب.

أجرى "**هيرودوتس**" مقابلات، كما يفعل الأنثروبولوجيون اليوم، مع "مخبرين رئيسيين" وسجل أقوالهم عن الذرية.[2] وبذلك يكون للمؤرخ "**هيرودوتس**" الفضل في إرساء الفكر الأنثروبولوجي، وحتى بعض ملامح وأساسيات المنهج الأنثروبولوجي المتعارف عليه في الوقت الحالي.

واهتمّ "**أفلاطون**" (428- 347 ق. م) بموضوع تغيّر مجتمع أثينا (عاصمة اليونان) ووضع تصورا مثاليا لما يجب أن تكون عليه الحياة الاجتماعية، وهذا ما تبلور في كتابه الشهير "الجمهورية".[3]

كذلك نجد أنّ "**أرسطو**" (348- 322 ق. م) كان من أوائل المفكرين الذين وضعوا بعض أوليات الفكر التطوري للكائنات الحية، وذلك من خلال ملاحظاته وتأملاته في التركيبات البيولوجية وتطورها عند الحيوان.[4]

1-2- عند الرومان:

---

[1] بيرتي ج بيلتو، دراسة الأنثروبولوجيا المفهوم والتاريخ، تر: كاظم سعد الدين، بيت الحكمة، بغداد، العراق، ط1، 2010، ص 31.

[2] المرجع نفسه، ص 31.

[3] حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا(فصول في تاريخ الإنسان)، مرجع سابق، ص 38.

[4] المرجع نفسه، ص38

أما في العصر الروماني (الذي امتد حوالي ستة قرون)، نجد أنّ الرومان قد تقفّوا أثر اليونانيين القدماء، فيما طرحوه من مسائل وأفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية و طبيعتها، وتفسير التباين والاختلاف فيما بينها. لكن لا يجد الباحثون الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره إسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب و ثقافاتهم.

و قد استثنى الباحثون الأنثروبولوجيون من ذلك أشعار" **كاروس لوكرتيوس Lecretıus**" التي تضمنت أفكارا اجتماعية هامة، وموضوعات أخرى عرضها في ستّة أبواب رئيسية ضمنها أفكاره ونظرياته عن المادة وحركة الأجرام السماوية وشكلها، وخصص الباب السادس لعرض فكرتي التطور والتقدم، حيث تحدث عن الإنسان الأول، والعقد الاجتماعي. وقد رأى بعض الأنثروبولوجيين أنّ " **لوكريتوس**" استطاع أن يصوّر مسار البشريّة في عصور حجرية ثم برونزية ثم حديدية، وهناك من رأى أنّ فكره تطابق مع فكر "**لويس مورجان L,Morgan** " أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، و ذلك من حيث رؤية التقدم والانتقال من مرحلة إلى أخرى.[1]

نجد أيضا الباحث الروماني "**تاسيتيوس**" الذي قدم دراسة اثنوغرافية عن ثقافة بدائية خاصة في كتابه الموسوم "**جرمانيا**"، الذي وصف فيه أخلاق وعادات القبائل الجرمانية وبيئتهم الجغرافية.[2]

لم يذكر المؤرخون بعد "**تاسيتيوس**" باحثين آخرين اهتموا بطبيعة المجتمعات الإنسانية في ذلك الوقت، إلا قلّة من الرجال الذين حاولوا تسجيل بعض الملاحظات و التفسيرات للمجتمع والسلوك البشري.

2-الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى:

[1] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان(الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 15

[2] بيرتي .ج. بيلتو، دراسة الأنثروبولوجيا المفهوم والتاريخ، مرجع سابق، ص 32.

يجمع معظم المؤرّخين أنّ العصور (القرون) الوسطى، امتدّت من القرن الخامس إلى حوالي القرن الخامس عشر للميلاد، وقد ارتبطت هذه العصور بتدهور الحضارة الأوروبية وسميت بالوسطى لأنها وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأوروبية القديمة وبداية عصر النهضة وعصر الاكتشاف لمختلف العلوم والمعارف، و كذا المناطق المجهولة والشعوب الغامضة. في هذا الوقت كانت تعرف فيه الحضارة العربية الإسلامية في أوجّ ازدهارها و تطورها في مختلف العلوم و الآداب و الفنون.

2-1-العصور الوسطى في أوروبا:

ارتبطت هذه الفترة بالنّكسة الحضارية، وعُرفت بالعصور المظلمة حيث تدهور التفكير العقلاني، وسيطرت الكنيسة على مختلف مجالات الحياة، فأُدنيت الأفكار المخالفة للتعاليم المسيحية وبذلك انتشر الإرهاب الديني المسيحي، وأخذت الكنيسة تقدم تفسيرات للكون والحياة الإنسانية، سواء في منشئها أو في مآلها على هواها.

ولكن إلى جانب ذلك، كانت هناك مراكز ومؤسسات أخرى وجهت منطلقات المعرفة وحددت طبيعتها خلال العصور الوسطى للحضارة الغربية، كبلاط الملوك، الذي كان يضم فئات من المثقفين كرجال الإدارة والسياسة والشعراء، وكذلك التوسع في دراسة القانون كجامعة "بولونيا" وكذا جامعة "باريس" التي اشتهرت بدراسة الفلسفة واللاهوت، وغيرها من الجامعات التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور.[1]

أما عن صلة بواكير الفكر الأنثروبولوجي بهذه الحقبة، نجد أنها تمركزت حول الدين «**حيث أن الأوروبيين في ذلك الوقت لم يهتموا بالتعرف على الشعوب المجاورة أو دراسة**

[1] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 17.

تقاليدها، إنما نظروا إليها من منطلق ضرورة تخليص أرواحهم من الشرك، و تطهير أراضيهم الوثنية عن طريق الغزو».[1]

على الرغم من ذلك فقد ظهرت عدّة محاولات للكتابة عن بعض الشعوب، لكنها اتّسمت بالوصف التخيّلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع، مثال ذلك ما قام به الأسقف "**إسيدور**" "Isidore" (عاش ما بين 560- 636م)، حيث أعد موسوعة عن المعرفة أشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة و عاداتهم، ولكن بطريقة عفوية. ومما جاء فيها وصفه للجماعات البشرية التي تعيش في الأماكن النائية بأنهم سلالات غريبة الخِلقة حيث تبدو وجوههم بلا أنوف، كما ذكر أن قرب الشعوب أو بعدها عن أوروبا يحدد درجة تقدمها، فكلما كانت المسافة بعيدة كلما كان الانحطاط والتدهور الحضاري مؤكدًا.[2]

وظهرت حوالي القرن الثالث عشر موسوعة أخرى أعدها الفرنسي "**باتولومكوس**" Batolomacus"، لكنها لم تختلف عن سابقتها من حيث الاعتماد على الخيال.[3]

2-2-العصور الوسطى عند العرب :

بينما كانت أوروبا تعيش أسوء عصورها، ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية في الجزيرة العربية، وانتشر الإسلام في أماكن متعددة ومتفرقة، حيث آمن به الملايين من الناس، كما كان لهذه الحضارة أثر بليغ في مختلف مناحي الحياة خاصة فيما تعلق بالحياة الفكرية و الأدبية.

أصبح من الضروري بعد انتشار الفتوحات الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الشعوب في البلدان المفتوحة لرصد سبل إدارتها، كما كان للجغرافيا العربية أهمية بالغة

[1] حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا (فصول في تاريخ الإنسان)، مرجع سابق، ص 42.
[2] مرجع نفسه، ص 42- 43.
[3] مرجع نفسه، ص 43.

حيث بلغت أوجّ نضجها في القرن الرابع للهجرة (التاسع ميلادي)[1]، على يد مجموعة من الباحثين العرب الذين برعوا في وضع المعاجم الجغرافية والموسوعات منهم: "**ياقوت الحموي**" في "**معجم البلدان**"، "**ابن فضل الله العمري**" في "**مسالك الأمصار** "، و"**النويري**" في "**نهاية الأرب في فنون العرب** "[2] وقد اعتمد أصحابها على المشاهدة والخبرة الشخصية .

كانت لرحلات "**ابن بطوطة**" وكتاباته خصائص وميزات ذات طابع أنثروبولوجي برزت فيها اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، و طابع شخصياتهم وقيمهم وتقاليدهم ومما كتبه عن أهل دمشق في شهر رمضان «**أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء، فإنه يدعو أصحابه و الفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية، فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد، و يأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا**».[3]

تناول" **ابن خلدون**" في مقدمته موضوعات لها صلة بالأنثروبولوجيا حيث يقول في مقدمته: «**قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودا لأهل البدو، وإنما يوجد لديهم وفي مواطنهم أمور الفلح و موادها معدومة، ومعظمها الصنايع فلا يوجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضرورات معاشهم في الفلح و غيره ...**».[4]

---

[1] حسين فهيم،قصة الأنثروبولوجيا(فصول في تاريخ الإنسان)،مرجع سابق.ص 44.

[2] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 17.

[3] أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار الفكر، (دط)، (دت)؛ ص 105.

[4] عبد الرحمن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: أ.م. كاترمير، ج1، مج1، مكتبة لبنان، بيروت،1992، ص 276.

كتب أيضا أنّه من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة يقول:« **لما كان الملك طبيعيا للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه، و كان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته و قوته الناطقة العاقلة لأن البشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه وإما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب، والملك والسياسة إنما كان له من حيث هو إنسان لأنها خاصة للإنسان لا للحيوان فإذن خلال الخير فيه وهي التي تناسب السياسة والملك».**[1]

يتّضح لنا مما سبق أنّ الفلاسفة والرحالة العرب قد أسهموا بقسط وفير في إرساء دعائم علم الأنثروبولوجيا.

3- الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية :

أُرِّخ لعصر النهضة (عصر التنوير) بنهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر للميلاد، حيث عرفت أوروبا تغيّرا جذريا في مختلف المجالات فقد أدى سقوط القسطنطينية عام (1453 م) إلى هجرة علمائها إلى أوروبا،كما تفطن الأوروبيون إلى ضرورة إحياء التراث الفكري القديم خاصة الروماني و الإغريقي، والنهل من التراث الأجنبي خاصة العربي منه، وقد رافق ذلك حركة نشطة للاستكشافات الجغرافية ، وتبعها «**الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الطبيعية و الاجتماعية**». [2]

كل هذه التطورات كان لها الأثر البليغ في تحفيز وتنشيط الحركة العلمية لأوروبا وبالتالي أسهمت «**في بلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطور الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني. الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضاراتها في أوروبا و خارجها، من أجل**

[1] عبد الرحمن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق،ص 259.

[2] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 19.

المقارنات و التعرف على أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطورية معنية، بحيث يضع ذلك أساسا لنشأة علم الأنثروبولوجيا».[1]

ولعل أكثر العوامل تأثيرا في نشأة علم الأنثروبولوجيا هي الرّحلات الاستكشافيّة التي عرفتها أوروبا منذ نهاية القرن الخامس عشر للميلاد، أهمها رحلة "**كريستوف كولومبس**" إلى العالم الجديد (1492م-1502م). «**فبدأ حينئذ تراكم سريع في معرفة جديدة من شعوب العالم كالهنود الحمر في أمريكا، و شعوب جزر البحار الجنوبية وشعوب غرينلاند التي تصيد الفقمة و الرنّة، وسكان جنوب الصحراء من الزنوج».**[2]

من المؤلفات التي ظهرت في تلك القرون والتي أثّرت على الفكر الأنثروبولوجي نجد: كتاب "**ريجارد هاكلويت**" الموسوم"**رحلات الغواصين التي تتعلق باكتشاف أمريكا**" وكتاب "**كلاوس ماكنوس**" وعنوانه "**تاريخ أهل الشمال**" (1555م)، وكتاب "**وغرانتس**" "**تاريخ غرينلاند**" (1767م).[3]

ثالثا: فروع الأنثروبولوجيا

تتفرع الأنثروبولوجيا العامة إلى فروع عديدة، تختلف باختلاف الموضوعات والمشكلات التي تعالجها، وتحيطها بالدراسة. هذا ما جعل تحديد أقسام الدراسة الأنثروبولوجية وفروعها أمرا مختلَفا فيه وسط روّاد هذا العلم ومتخصّصيه، حيث برزت العديد من الفروع في بلدان معينة، في حين نجد أنّ نفس تلك الفروع تدمج مع بعضها في بلدان أخرى، كما هو الحال مع الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية، ففي كثير

[1] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 19.
[2] بيرتي. ج. بيلتو، دراسة الأنثروبولوجيا (المفهوم والتاريخ)، مرجع سابق، ص 35.
[3] مرجع نفسه، ص 36.

من المراجع نجد دمجا لهذين الفرعين. لكن سنعتمد على التقسيم الرائج في كثير من المراجع وهو كالآتي:

أ_الأنثروبولوجيا الفيزيقية physical anthropology:

وتسمى أيضا الأنثروبولوجيا العضوية أو الطبيعية، وهي مجال يختص بدراسة الإنسان باعتباره فردًا من عالم الطبيعة، ويبحث في أصل نشأته وتطوره، وفي مختلف تغيّراته العضوية والبيولوجية.

كما يهتم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا «**بدراسة الإنسان باعتباره كائنا طبيعيا، فتهتم بتاريخه وتطوره وطبيعة تركيبه الجسمي من أقدم العصور حتى الآن، أي أن هذا العلم يهتم بتتبع تاريخ الخصائص والصفات الجسمية للإنسان مركزا على جسم الإنسان سواء من حيث صفاته ومقاييسه أو من حيث أصوله وأجداده، و الخصائص الوراثية التي تتناقلها الأجيال، و تتوارثها الأجناس البشرية منذ فجر التاريخ**».[1] فالأنثروبولوجيا الطبيعية تتتبّع نمو الإنسان وتطوره منذ العصور الغابرة، وتتقصى التغيرات التي تطال جسمه، وأهم الخصائص الوراثية التي تنتقل عبر الأجيال، وبالتالي أهم مميزات كل جنس بشري.

ويستخدم مصطلح الأنثروبولوجيا الطبيعية (العضوية) للدلالة على «**العلم الذي يبحث في شكل الإنسان من حيث سماته العضوية، والتغيرات التي تطرأ عليها بفعل المورثات كما يبحث في السلالات الإنسانية من حيث الأنواع البشرية و خصائصها**».[2] فالأنثروبولوجيا الطبيعية لها اهتمامات رئيسية خاصة بتصنيف الإنسان إلى سلالات، وفق سمات خاصة يحددها علم الوراثة كلون العين، ولون البشرة وشكل الرأس... إلخ

[1] عبد الله عبد الغني غانم، الأنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سابق، ص 16.

[2] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 49.

ويحوي هذا الفرع من الأنثروبولوجيا عدة مجالات «**تتمثل في الموضوعات التالية: الوراثة، مجموعات الدم، القياس البشري، الأجناس أو السلالات، التغذية و تحاول الأنثروبولوجيا الفيزيقية أساسا تفسير الاختلافات أو التمايزات البيولوجية في الإنسان**».[1] فمن خلال هذا القول يتضح أنّ علم الأنثروبولوجيا عامة وعلم الأنثروبولوجيا الطبيعية على وجه الخصوص يتلاقى مع العلوم الطبيعية كعلم البيولوجيا، وعلم المورفولوجيا، وعلم وظائف الأعضاء... إلخ «**والدليل على حاجة الأنثروبولوجيا إلى العلوم الطبيعية يتمثل في البحث عن أصل البشرية من خلال طريقتين: الطريقة الأولى: وسميت بالطريقة المباشرة، و ذلك من خلال دراسة المستحثات (بقايا الإنسان)، وطريقة غير مباشرة: من خلال دراسة الكائنات الحية غير الإنسانية، لكنها أقرب إلى الإنسان، وذلك بالاعتماد على علم الأنسجة وعلم الوراثة**»[2]، فعلم الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) تربطه علاقة قوية بالعلوم الطبيعية المختلفة كعلم البيولوجيا، فكلاهما مبني على نموذج نظري للتنوع (كل في تخصصه) «**ويحظى تحليل التنوع في العلمين بدور حيوي: التنوع الجيني في علم (البيولوجيا)، والتنوع الاجتماعي في (الأنثروبولوجيا)، فالتنوع أمر أساسي لما تسمية البيولوجيا "الفاعلية البيولوجية" وهي القدرة على مواصلة الحياة، وإخلاق الذرية، والأمر ذاته نجد في الأنثروبولوجيا فيما يطلق عليه إشباع الحاجات الأساسية**»[3] فالتنوع والاختلاف أمر ضروري لاستمرار الحياة

وتنقسم الأنثروبولوجيا العضوية بحسب طبيعة الدراسة إلى فرعين هما:

[1] عبد الله عبد الغني غانم، الأنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سابق، ص 15.

[2] مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 30-31.

[3] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 26.

- **فرع الحضريات البشرية "Paleantology"**: مهمة هذه النوع من الدراسة، محاولة معرفة ما نجهله عن الإنسان البائد، وذلك من خلال الحفريات التي تكشف عن بقاياه وآثاره وما خلفه من ورائه، ومحاولة تحليل هذه المكتشفات من خلال معرفة الأسباب التي دعت إلى حدوث تغيرات مرحلية في شكل الإنسان.
- **فرع الأجناس البشرية "Somotology"**:وهو العلم الذي يدرس الصفات العضوية للإنسان البدائي المنقرض والإنسان الحالي من حيث الملامح الأساسية والسمات العضوية العامة.[1]

ب_الأنثروبولوجيا الاجتماعية "social anthropology":"

يوصف علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنّه علم حديث العهد، لا بل من أكثر العلوم الاجتماعية حداثة، فقد استخدام مصطلح "الأنثروبولوجيا الاجتماعية" للمرة الأولى في عام (1990)، عندما كرّمت جامعة "ليفربول" في بريطانيا السيد "**جيمس فريزر J.Frizer** " ومنحته لقب الأستاذ.[2]

ويعرّف هذا الفرع من الأنثروبولوجيا بأنّه: «**دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والاجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية**».[3] فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تعنى بدراسة النظم الاجتماعية التي تحددها السلوكات الاجتماعية للإنسان داخل مجتمعه، سواء كانت هذه السلوكات فردية أو جماعية. كما تعنى بتحديد العلاقات المتبادلة بين هذه النظم وتشمل على حد سواء المجتمعات القديمة والحديثة.

---

[1] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق ، ص 50.

[2] مرجع نفسه، ص 83.

[3] مرجع نفسه، ص 82.

وتعرّف بأنّها«**دراسة تكاملية لأن أية محاولة تتم لدراسة السلوك الإنساني تحاول الإحاطة بالإطار الاجتماعي الذي يوجد فيه، ومن خلال الظواهر التي تؤثر فيه وتتأثر به**».[1] فالأنثروبولوجيا الاجتماعية توصف بالتكاملية و الشمولية، تكاملية لأنها تدرس السلوك الإنساني في إطاره الاجتماعي وتحدد التأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية وشمولية لأنها تشمل مختلف السلوكات الاجتماعية التي تصدر عن الإنسان وبالتالي فهي تدرس المجتمع ككل، و بذلك تقترب العلاقة بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع «**فعلم الاجتماع هو أقرب العلوم الاجتماعية، ولو أن الآراء تختلف و تتباين حول تكييف طبيعة هذه العلاقة، فكل منهما يدعي لنفسه دراسة المجتمع كله، و ليس جانبا واحدا منه مثل الاقتصاد أو السياسة**».[2] فكلاهما يدرس مختلف جوانب المجتمع ولا يختص أحدهما بجانب معين، ومنه فالدراسات الاجتماعية عامة وشاملة.

ج_الأنثروبولوجيا الثقافية cultural anthropology:

السِّمة التي تميز الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى كونه الكائن الوحيد الحامل للثقافة وباعتبار أنّ الثقافة ظاهرة خاصة بالإنسان، فإن هذا الفرع من الأنثروبولوجيا يهتم بدراسة هذه الظاهرة ويسعى إلى فهمها وتحديد عناصرها.

يعرّف "**إدوارد تايلورE.Taylor**" الثقافة بأنها: «**ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع**»[3]. فمن خلال هذا التعريف نستنتج أنّ الثقافة

---

[1] فاتن محمد شريف، الأسرة والقرابة : دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006، ص 09.

[2] محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، مرجع سابق، ص 29.

[3] نبيل الحسني، الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين، مرجع سابق، ص 22.

عبارة عن مجموعة من الأفكار المشتركة التي تعبّر عن كليّة حياة الإنسان الاجتماعية، لأن الثقافة مكتسبة وليست موروثة.

أما الأنثروبولوجيا الثقافية فتعرّف بأنّها:«**العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع له ثقافة معينة، وعلى هذا الأساس أن يمارس سلوكا يتوافق مع سلوك الأفراد في المجتمع (الجماعة) المحيط به، يتحلى بقيمه وعاداته ويدين بنظامه ويتحدث بلغة قومه**»[1]. يسعى هذا الفرع من الأنثروبولوجيا إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها كما اهتم بمنتوج الإنسان المادي والفكري ومخلفات ذلك، وتطوره وتصنيفاته.[2]

تعنى الأنثروبولوجيا الثقافية:«**بدراسة أصول المجتمعات والثقافات الإنسانية وتاريخها، وتتبع نموها وتطورها، وتدرس بناء الثقافات البشرية وأدائها لوظائفها في كل مكان وزمان. فالأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة في ذاتها، سواء كانت ثقافة أسلافنا أبناء العصر الحجري، أو ثقافة أبناء المجتمعات العصرية المعاصرة**»[3]. يهتم العلم بدراسة الثقافة الإنسانية وأساليب حياة الإنسان وسلوكياته كما يهتم بدراسة ثقافة الشعوب القديمة وكذا الشعوب المعاصرة.

ويمكن أن تكون دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية ذات جانبين:

---

[1] مصطفى صادق أزهري ، الأنثروبولوجيا الطبيعية والثقافية (علم الإنسان الطبيعي والثقافي)، أثر 214، جامعة الملك سعود، السعودية، 1433، ص 11.

[2] عبد العزيز بن محمد خواجة ، محاضرات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، محاضرة موجهة لطلبة العلوم الإنسانية، جامعة غرداية، الجزائر، السنة الجامعية 2014- 2015، ص 12.

[3] محمد الجوهري وآخرون، الأنثروبولوجيا الاجتماعية (قضايا الموضوع والمنهج)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2004، ص 19.

الأول: يتمثل في الدراسة المتزامنة أو في زمن واحد، أي دراسة المجتمعات والثقافات عبر تاريخها، أما **الثاني:** هو الدراسة التبعية التاريخية، أي بدراسة المجتمعات والثقافات عبر التاريخ.[1]

تقسم الأنثروبولوجيا الثقافية إلى ثلاثة أقسام: علم اللغويات، وعلم الأثار، والإثنولوجيا.

1.علم اللغويات "Linguistics":

تعتبر اللّغة من أهم وسائل الاحتكاك والتواصل بين الأفراد والشعوب، فهي طريقة التخاطب والتفاهم في مختلف الميادين الحياتية، وباعتبار أنّ اللغة هي الوعاء الناقل للثقافة[2]، فإن هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية «**يتخصص في دراسة لغة الإنسان من جميع جوانبها، والتي تمكنه من حفظ ونقل ثقافته من جيل إلى جيل**»[3].

فاللّغة جانب مهم من الجوانب التي تكون ثقافة شعب ما، وبها تضمن بقاءها لذا فإن «**العلاقة الموجودة بين الثقافة واللغة قد تم التعبير عنها بمصطلح الإثنولغوية، ودورها يتمثل في الوصف والتحليل الشكلي والظاهري للغات التقليدية والمحلية على مستوى علم الأصوات، وحتى على مستوى النحو**».[4] فهذا العلم يهدف إلى الوصف الدقيق للّغات، كما يبحث في أصولها التاريخية وكيفية نموها وتطورها، ورواد هذا الفرع يدرسون اللّغة في سياقها الاجتماعي والثقافي: «**ويهتمون بأصولها وتطورها، وبنائها، والاهتمام بمشكلاتها،**

[1] محمد الجوهري وآخرون، الأنثروبولوجيا الاجتماعية (قضايا الموضوع والمنهج) مرجع سابق ص20.

[2] عيسى شماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 73.

[3] عبد الله عبد الغني غانم، الأنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سابق، ص 39- 40.

[4] مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، مرجع سابق، ص 37- 38.

والعلاقات القائمة بين لغة شعب ما وبقية جوانب ثقافته، فيتمكن من دراسة الكيفية التي ترتبط بها لغة جماعة معينة، بمكانة تلك الجماعة أو وصفها الاجتماعي».[1]

فللّغة أهمية بالغة في حياة المجتمع وبدونها وجوده محال لذلك «**يعتبرها "ليفي ستراوس" أحد الأركان الأساسية في علم الإنسان، إن لم تكن حجر الزاوية في ذلك العلم (...)، ويعتبرها الظاهرة الثقافية الأساسية التي يمكن عن طريقها فهم كل صور الحياة الاجتماعية».**[2] ومنه؛ فعلم اللّغويات يختص بدراسة أصول اللّغات الإنسانيّة ، وكذا تركيبها وبنائها سواء كانت هذه اللغات قديمة أم حديثة ، منقرضة أم حية ، كما يبحث في مقوماتها ورموزها واختلافاتها.

2.علم الأثار القديمة (الأركيولوجيا) "archeology":

يعنى هذا العلم بدراسة آثار ومخلّفات الإنسان وما تركه من أدوات ونقوش ورسوم وسجلات على مرّ العصور والحضارات، والتي تجلي وتكشف عن نمط عيشه وكيف أشبع حاجاته ومتطلبات حياته من مأكل ومشرب وملبس ومسكن فهذه الدراسات تشبه إلى حد ما دراسات الجيولوجيين، وعلماء الأحياء المتحجرة وكذا علماء طبيعة الأرض، حيث يشتركون في عمليات التنقيب والبحث عن آثار الإنسان القديم وحضاراته البائدة ليفهم كيف عاش ذلك الإنسان.

ويهتم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا الثقافية بـ «**جمع الآثار والمخلّفات البشريّة وتحليلها، بحيث يستدل منها على التسلسل التاريخي للأجناس البشرية في تلك الفترة التي لم تكن فيها الكتابة، وليس ثمة وثائق مدونة (مكتوبة) عنها**»[3]، فمن خلال تلك المخلفات

[1] محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، مرجع سابق، ص 35.

[2] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 74.

[3] عيسى الشماس،مدخل إلى علم الإنسان(الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 75.

البشريّة يستطيع الأركيولوجي أن يحدد شكل الحياة الثقافية وتطورها عبر الأزمنة، باعتبار أنّ البقايا التي خلّفها الإنسان القديم تمثل طبيعة ثقافاته وعناصره، «**فالبحوث الأركيولوجية لا تساعد فقط على إعادة رسم الماضي، وإنما تمدنا كذلك بكثير من مفاتيح الطرق التي تغيرت من خلالها الثقافات الإنسانية، وتساعدنا المعلومات التي يقدمها الأركيولوجي على فهم العوامل العديدة المركبة التي تؤدي إلى إحداث التغير الثقافي**»[1]. فالهدف الأساسي لعلم الآثار كشف ماضي الجماعات الإنسانية وثقافاتها من خلال مخلفاتها وآثارها التي تعتبر شواهد ودلائل على النشاط البشري ونمط عيش الإنسان القديم وطريقة تفكيره.

يحاول عالم الآثار دراسة التسلسلات الطويلة للتطور الثقافي والاجتماعي في ظل الظروف الثقافية والطبيعية المتنوعة، وذلك من خلال البحث والتنقيب عن ثقافات العهود الغابرة[2]، فعلم الأركيولوجيا يهدف إلى الوصول إلى ثقافات العهود القديمة وبالتالي تتبع عملية التطور الثقافي للثقافات المعاصرة.

3.الإثنولوجيا (علم الثقافات المقارن) "Ethonology":

يعرّف علم الثقافات المقارن بأنّه:«**دراسة الثقافة على أسس مقارنة، وفي ضوء نظريات وقواعد ثابتة بقصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات وتطورها، وأوجه الاختلاف فيما بينها، وتحليل انتشارها تحليلا تاريخيا**».[3] فالدّراسات الإثنولوجية تعتمد على عملية المقارنة المبنية على نظريات وقواعد ثابتة والتي تكون بين ثقافتين أو أكثر، في حين تعتمد على عملية التحليل عند دراسة ثقافة واحدة.

---

[1] محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، مرجع سابق، ص 38.

[2] يحي مرسي عبد بدر، أصول علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، ج2، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط2، 2007، ص 15.

[3] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان(الأنثروبولوجيا) ، مرجع سابق، ص 77.

وتختلف الثقافات باختلاف الشعوب والجماعات البشريّة وتنوعها، لذلك«**تهتم الإثنولوجيا في جوانبها النظرية، أكبر الاهتمام بمشكلة تفسير أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين الثقافات الإنسانية**».[1] فالمقارنة بين الثقافات البشرية مهمة عالم الإثنولوجيا بعد أن يجمع مؤشرات التشابه والاختلاف، لذلك يرتكز عمله على الوصف الدقيق للسّمات الثقافية التي تخص جماعات بشريّة مختلفة ، وبذلك «**يتداخل هذا الفرع تداخلا كبيرا مع طبيعة الأنثروبولوجيا، خاصة من حيث دراسة الشعوب وتصنيفها على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية**».[2]

ومن مميزات علم الإثنولوجيا أنّه «**يدرس الثقافات الحية (المعاصرة) والتي يمكن التعرف عليها بالعيش بين أهلها، كما تدرس الثقافات المنقرضة (البائدة) بواسطة مخلفاتها الأثرية المكتوبة والوثائق المدونة**»[3]، فالدّراسات الإثنولوجية لا تقتصر على ثقافات المجتمعات المعاصرة فقط، وإنما تختص أيضا بثقافات المجتمعات الزائلة من خلال الاعتماد على آثارها ومخلفاتها التي تعكس صورة تلك المجتمعات وخاصة ثقافاتها.

رابعا: علاقة الأنثروبولوجيا بالأدب:

بما أنّ علم الأنثروبولوجيا علم يهتم بدراسة الإنسان من مختلف جوانبه الحياتية، سواء من الناحية الاجتماعية أو البيولوجية، وكذا الناحية الثقافية، فلا بد من البحث عن علاقة هذا العلم بالأدب، باعتبار هذا الأخير لسان حال المجتمع البشري والمعبر عن مختلف آماله وآلامه.

[1] محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، مرجع سابق، ص 39.

[2] المرجع نفسه، ص 38.

[3] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، مرجع سابق، ص 78.

فالأدب «**تشكيل لغوي يمثل التعبير الأسمى والأجمل عن فكر الأمة، وحياتها وطموحاتها وقيمها، وهو تعبير من إنشاء العقل والخيال معا، على يد أفراد تجلت فيهم وتوهجت في أعماقهم ملامح أمتهم وخصوصيتها**»[1]، فالعمل الأدبي يعكس صورة المجتمع الذي يمثله وكذا حياته وطموحاته وقيمه. فالأدب تعبير عن وجدان المجتمع بمختلف تمظهراته. سواء كان هذا الأدب مسرحا أو أسطورة أو حكاية أو شعر أو رواية.

لذا؛ فالحدود الفاصلة بين العلوم والدراسات الإنسانية حدود مصطنعة وتعسفية إلى حد كبير، فهناك مناطق ومساحات واسعة ومشتركة بين الأنثروبولوجيا والأعمال الأدبية[2] فكلا من الدراسة الأنثروبولوجية والإبداع الأدبي وبخاصة العمل الروائي يهتم بإعادة بناء العالم الإنساني الذي يدور حوله كل من هذين النشاطين، على الرغم من اختلافهما في أساليب فهم ذلك العالم وطريقة التعبير عنه.[3]

كما أنّ كلاهما استمد مادته الأولية من الواقع المعيش أو من الأحداث التاريخية التي وقعت في فترة زمنية معينة، وكلاهما ينظم بطريقته الخاصة تلك الأحداث والوقائع، ويحدد لنفسه المساحات الزمانية والمكانية[4]. فالعمل الأدبي والدّراسة الأنثروبولوجية يشتركان في بؤرة اهتمامهما وهو المجتمع (الإنسان) ويسلّطان الضوء على فترة زمنية معينة من حياته وكذا مساحة مكانية محددة مرتبطة به كل حسب أسلوبه الخاص وطريقته في النظر إلى ذلك المجتمع.

---

[1] ماهر شعبان الباري، التذوق الأدبي "طبيعته، نظرياته، مقوماته، معاييره، مقاييسه"، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2009، ث 18.

[2] مجموعة من الأساتذة، بحوث في الأنثروبولوجيا العربية، كلية الآداب، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص 42.

[3] مرجع نفسه ،ص 47.

[4] أحمد أبوزيد، الرواية الأنثروبولوجية بين الواقع الإثنوغرافي والخيال الإبداعي، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع3و4 ،23 مارس، أفريل 1996، ص 135.

كما تتقلص المسافة أكثر بين الأدب والأنثروبولوجيا وتقوى العلاقة بينهما، كلما كان الأديب مندمجًا مع مجتمعه وثقافته، فالنّتاج الثقافي الذي تتوافر فيه هذه الميزات يصلح لأن يكون مرجعا يجد فيه الباحث الأنثروبولوجي ضالته، وينهل منه مادته المعرفية، فإذا تأملنا أدباء العصر الكلاسيكي الفرنسي يؤلفون خطابا حول الإنسان، فإن هدف الأنثروبولوجيا الكلاسيكية هو دراسة هذا الخطاب، وهذا يعني أنها شكلت مجالا معرفيا يقف في موازاة الأدب ويعمل على مساندته[1]. فالأدب يشكل مرجعا ومنهلا خصبا للبحث الأنثروبولوجي، خاصة إذا توفرت في هذا الأدب المادة الأولية (الخصائص الاجتماعية والثقافية والسياسية... للمجتمع (الإنسان)) التي يعتمد عليها الباحث الأنثروبولوجي.

ولعل علاقة الدراسات الأنثروبولوجية بالأعمال الروائية علاقة متميزة، «**ويظهر ذلك جليا في الأعمال الأنثروبولوجية الكبرى التي صدرت عن رواد الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، وهو في الوقت نفسه عصر ازدهار الأعمال الروائية الكبرى في بريطانيا، ومن ذلك كتابات "سير جيمس فريزر" مثلا، خاصة في كتابه المعنون بـ "الغصن الذهبي"، ولكنه كتب في الوقت نفسه بأسلوب أدبي رفيع يضاهي أرقى أساليب التعبير في الأعمال الروائية الكلاسيكية، كما أن الوقائع والأحداث والظواهر اجتماعية والثقافية والحقائق التاريخية التي يضمها الكتاب صيغت في شكل روائي جذاب تدور حول مشكلة محورية أشبه بالحبكة في الأعمال الروائية (...)، ثم صاغ ذلك كله في تلك الصياغة التي تجمع بين السرد والوصف، والتحليل العلمي والقص أو الحكي الأدبي الروائي، بحيث تمتزج في ذلك العمل (الغصن الذهبي) الأنثروبولوجي العلمي الضخم موضوعية العالم وذاتية الأديب المبدع**».[2]

---

[1] باية غيبوب ، الشخصية الأنثروبولوجية الفجائية في رواية مائة عام من العزلة ل غابريال غارسيا ماركيز، الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر،(دط)، 2012، ص 66.

[2] مجموعة من الأساتذة، بحوث في الأنثروبولوجيا العربية، مرجع سابق، ص 47.

والمهم من كل هذا أن القص والحكي يؤلف عنصرا أساسيا في العمل الأنثروبولوجيى الأكاديمي والعمل الروائي الإبداعي على حد سواء، فكل منهما يؤلف (قصة) تستمد عناصرها من الواقع، لكنها تخضع لعناصر معينة ترتب بطريقة خاصة كي تتوافق مع أهداف البحث العلمي.[1] ومنه؛ فعلاقة الأنثروبولوجيا بالأدب علاقة تأثير متبادل بحكم أنّ الأدب بمختلف أجناسه يمثل مادة وموضوعا للدراسات الأنثروبولوجية، خاصة منها الأعمال الروائية التي تربطها علاقة متينة وقوية بالبحث الأنثروبولوجي.

خلاصة:

مما سبق نخلص إلى أنّ علم الأنثروبولوجيا علم من العلوم الإنسانية الحديثة يختص بدراسة الإنسان من مختلف جوانبه الحياتية، في ماضيه وحاضره، ويقسم هذا العلم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي: الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية وتعنى بالجانب البيولوجي للإنسان، الأنثروبولوجيا الثقافية وتعنى بدراسة الثقافة كظاهرة خاصة بالإنسان، وأخيرا الأنثروبولوجيا الاجتماعية وتعنى بدراسة الجانب الاجتماعي للإنسان وعلاقاته بالمجتمع الذي يعيش فيه وأفراده الذين يتأثر بهم ويؤثر فيهم.

كما وجدنا أنّ الأنثروبولوجيا والأدب تربطهما علاقة متميزة بحكم أن الأدب بمختلف أجناسه يمثل مادة خصبة للأنثروبولوجيا وموضوع دراستها، خاصة الرواية باعتبارها تمثل حكاية بشر وجماعات وأشخاص، وذلك من أبرز اهتمامات الأنثروبولوجيا.

[1] مرجع نفسه، ص 51.

الفصل الأول: مدينة قسنطينة في الأدب الجزائري

1/مفهوم المدينة

2/ صورة المدينة في الأدب العربي القديم

3/ المدينة في الأدب العربي الحديث

4/ مدينة قسنطينة في الأدب الجزائري

تمهيد:

حظيت المدينة كمكان بمكانة هامة في الأدب العربي قديمه وحديثه، حيث تعتبر من أبرز المواضيع التي اشترك فيها معظم الأدباء العرب من شعراء وروائيين، فتحدثوا عنها في قصائدهم ورواياتهم.

والأدباء الجزائريون لم يختلفوا عن نظرائهم العرب، حيث شغلت المدينة بالهم كما شغلت أعمالهم الأدبية، خاصة في ظل الظروف التي عاشتها الجزائر، أبرزها فترة السبعينات والثمانينات والتسعينات، أين عرفت المدن الجزائرية تحولات على مختلف الأصعدة، فحاول الأدباء الجزائريون رصد هذه التحولات وإبراز مواقفهم منها في أعمالهم الأدبية، من خلال تناول فضاء المدينة من جوانب مختلفة خاصة الجانب التوبوغرافي والحضاري، وكذا الجانب الرمزي، حيث اتّخذ منها الأدباء وسيلة لرصد آرائهم وأفكارهم ومشاعرهم إزاء ما يحدث من تحولات.

ومن أبرز المدن الجزائرية التي كانت حاضرة بمختلف جوانبها في الأدب الجزائري مدينة الجسور المعلقة قسنطينة، فكيف تجلت صورتها في الأعمال الأدبية الجزائرية الشعرية والروائية والرحلية؟.

وقبل ذلك، يجب التطرق إلى بعض المفاهيم حول المدينة وصورتها في الأدب العربي والجزائري.

1- مفهوم المدينة:

أ- لغة:

تتّفق جلّ المعاجم اللغوية العربية على أن لفظة "**المدينة**" مأخوذة من المادة اللغوية "مدَن"، ومعناها الحِصن، والمكان الذي يوفر لسكانه الاستقرار.

ففي معجم "**لسان العرب**" "**لابن منظور**" ورد أنّ المدينة «**الحصن يبنى في أصْطمَّةِ الأرض، مشتق من ذلك، وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمّتها* فهي مدينة والنسبة إليها مَدِينيّ، والجمع مَدَائِن ومُدُنٌ**»[1]، في تعريف "ابن منظور" المدينة هي الحصن.

ويوافقه في ذلك صاحب معجم "**تهذيب اللغة**"، فقد ورد معنى المدينة مسندًا إلى أقوال "**الليث**" العالم اللغوي الكبير، يقول **الأزهري**: «**وقال الليث المدينة اسم مدينة الرسول عليه السلام خاصة، والنسبة للإنسان مدنيٌّ، وكل أرض بني بها حصن في أصطمّتها فهي مدينة، والنسبة إليها مدينيٌّ**»[2].

نلمس تلاقيا واضحا في باب النسبة بين المعجمين حيث أن النّسبة للمدينة هي مدينيٌّ.

أما في "**معجم الوسيط**" فنجد جمعا لمختلف معاني "المدينة"، إذ ورد فيه أنّ: «**مَدَنَ: أتى المدينة، تمدَّنَ: عاش عيشة أهل المدن وتنعم وأخذ بأسباب الحضارة، المدنية، الحضارة واتساع العمران، المدينة: المصر الجامع (ج) مدائن ومدن ويثرب مدينة الرسول**

---

[1] جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مادة (مدن)، تح: أمين محمد عبد الوهاب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999، ص 55.

*الأصطمّة: معظم الشيء أو وسطه.

[2] أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تهذيب اللغة، مادة (مدن)، تح: يعقوب عبد النبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة،(دط)، (دت)،(دص).

صلى الله عليه وسلم، غلبت عليها»[1]. في هذا التعريف معنى المدينة مرتبط بالحضارة واتّساع العمران، وهما صفتان من صفات المدينة، كما ورد جمع اللفظة (مدائن ومدن)، وهو ما اتفق عليه المعجمان الآنف ذكرهما.

وقد وردت لفظة "**المدينة**" في القرآن الكريم أكثر من مرة، تارة للدلالة على المدينة المنورة، وتارة أخرى وردت كمرادف للفظة القرية.

أما الآيات الكريمة التي وردت فيها لفظة "المدينة" للدلالة على "المدينة المنورة"، نذكر قوله عز وجل: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ الله وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ بذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله وَلَا يَظُئُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِح إِنَّ الله لَا يَضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِين**﴾[2].

وقوله تعالى: "**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنَافِقُونَ والذِينَ فَي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالمُرْجَفُونَ فِي المَدِينَة لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**﴾.[3]

أما الآيات الكريمة التي وردت فيها لفظة "المدينة" كمرادف للفظة "القرية" قوله جلَّ وعلا في سورة الكهف: ﴿**وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْم قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى المَدِينَة فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلِيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمُ أَحَدًا**﴾[4]

فالمعنى اللغوي للفظة المدينة يشير إلى أنها المكان الذي يستقر فيه الإنسان.

---

[1] مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (مدن)، مطبعة القاهرة، مصر، 1961، ص 869.

[2] سورة التوبة الآية (120).

[3] سورة الأحزاب الآية (60).

[4] سورة الكهف الآية (19).

ب- اصطلاحا:

المدينة هي ذلك المكان الشاسع الذي يجتمع فيه الكثير من الناس على مختلف مستوياتهم وأعمارهم وأجناسهم وطبقاتهم، «**فهي رمز للمكان ومركز كبير للتجمع البشري يضم بين جنباته طبقات متباينة من الناس يغلب عليها الطابع المادي بشكل عام، نظرا لأن ظروف الحياة فيها تختلف كثيرا عن ظروف الحياة في القرية أو الريف**».[1] والمدينة عكس الريف، فهي تتوفر على مختلف ضروريات الحياة الكريمة التي يحلم بها كل إنسان، وتختص بخصائص فريدة لا يمكن أن نجدها مجتمعة في الريف، فالمدينة «**تعد مسكن الإنسان الطبيعي، وهو المكان الأفضل المبني لسعادته**».[2]

وقد عرفها أحد الباحثين قائلا: «**لئن كانت المدينة في العمارة البشرية طفرة تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية، فإنها من الناحية الفلسفية تمثيل رد الإنسان على غطرسة وغرور الطبيعة، وإعادة تأهيل السطح والتضاريس في ترويض للمكان خدمة للغايات الإنسانية وتلبية لحاجات البشر**»[3]. فقد حاول الإنسان تكييف عناصر الطبيعة حسب حاجاته الحياتية، فتحدى التضاريس الطبيعية الوعرة، وجعل منها أبنية وعمارات ومساكن شكلت المعالم الحضارية للمدينة.

---

[1] أحمد قيطون وعمار حلاسة، تيمة المدينة في الخطاب لشعري الجزائري المعاصر، مجلة مقاليد، ع6، الجزائر، 2014، ص 63.

[2] قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر- دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان-، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص 22.

[3] فاطمة عطفة، محاضرة ترصد حضور المدينة في الأدب، جريدة الاتحاد، أبو ظبي، الثلاثاء 20 مايو 2004، تاريخ الإطلاع: 27 يناير 2018.

2- صورة المدينة في الأدب العربي القديم:

قبل أن نتطرق إلى صورة المدينة عند العرب لا بد من الإشارة إلى أنّ المدينة أول ما ظهرت كانت عند الغرب، حيث يرجع العديد من الباحثين والدارسين أن نشأة المدينة ظهرت على أساس ديني عند الإغريق والرومان، ولعل نظرية المؤرخ الفرنسي "**فوستيل دي كولنجل**"هي «**أول نظرية في مجال نشأة المدينة، وخلاصة هذه النظرية الدينية" اجتمع عدد من العائلات وكونوا مجموعة سكانية ومثلهم فعل الرومان(...)، إذ أنه تكونت لدى عدة مجموعات فكرة آلهة أسمى من الآلهة المنزلة، ومن تجمع عدة مجموعات تكونت القبيلة واتّخذت لها إلها حاميا وشيّدت له هيكلا، وللقبيلة اجتماعاتها وقراراتها الملزمة لجميع أعضائها، وكانت لها محكمتها وقانونها، فتكونت هكذا نواة المدينة العتيقة**».[1]فالدين كان أساس ظهور المدينة عند الغرب.

أما عند العرب فقد ارتبطت المدينة في بادئ الأمر بالمكان خاصة في العصر الجاهلي أين اهتم العرب بالمكان وعرفوا أهميته البالغة في الاستقرار والأمان. ثم بدأت معالم المدينة تظهر شيئا فشيئا خاصة مع بزوغ فجر الإسلام؛ فظهرت العديد من المدن العربية.

يعتبر المكان جزءا لا يتجزأ من حياة الإنسان وثقافته وحضارته، والعلاقة بين المكان ومنه المدينة، وبين الإنسان ومنه الأديب العربي علاقة قديمة ووطيدة فقد أدرك الشاعر العربي القديم أهمية المكان في حياته، ولعل الوقوف على الأطلال دليل على وعيه بأن الأمن والاستقرار مرتبط بالثبات في مكان واحد « **فالوقوف على الأطلال يتحول من الوقوف على غريزة الحياة التي كان يمثلها المكان في يوم من الأيام في وجه غريزة الموت التي يمثلها الجدب والقحط الطبيعي (...)، فشعراء الجاهلية لم يبكوا بين الأحبة بقدر ما بكوا**

[1]عبد الحفيظ بورايو، مدينة قسنطينة في أدب الرحلات، مخطوط مذكرة مقدمة لنيل الماجستير في الآداب، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008، ص13.

خلو الديار من أهلها، وكأن نفس الشاعر البدوي تتوق وتتطلع إلى الاستقرار الحضاري»[1].

فقد ارتبطت الأطلال بالفقد والضياع، في حين ارتبط المكان قبل أن يصبح طللا بالحياة والاستقرار، وبالتالي فغياب المدينة في الشعر الجاهلي عوضته الأطلال، والوقوف على هذه الأطلال ظاهرة شاعت في الشعر الجاهلي، عبرت عن شعور الشاعر الجاهلي بعدم وجود مكان خاص ينتمي إليه، ومنه عدم أمنه واستقراره.

أما مع مجيء الإسلام فقد استقر العرب «**بعد اضطراب وترحال، وأمنوا بعد الخوف فتكونت الحواضر وتأسست المدن وأرسيت مقاليد الحكم**»[2].

وقد وردت لفظة "**المدينة**" في القرآن الكريم كمرادف للقرية – كما سبق الإشارة إلى ذلك– حيث حدد الله سبحانه وتعالى صفات بعض المدن (القرى)، وأهلها، كما في قوله عز وجل: ﴿**فانْطَلَقَا حتَى إذا أَتَيا أهلَ قريَةٍ اِسْتطعَمَا أهلَها فأبَوا أن يُضيّفوهُمَا**﴾[3] فأهل هذه القرية يتصفون ببخلهم وشحهم، وكذلك اختلافهم وتنازعهم[4]، قال تعالى: ﴿**إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا**﴾.[5]

هذه الصفات وأخرى تحدث عنها القرآن الكريم، وكذا الأحاديث الشريفة، التي تحذر فيها بوضوح من فساد المدن وما يتولد عنها من معاصي.[6]

---

[1] قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 31.

[2] مرجع نفسه، ص 32.

[3] سورة الكهف، الآية (77).

[4] قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 31.

[5] سورة الكهف، الآية (21).

[6] قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 34.

أما عن المدينة في العصر العباسي، فقد شكلت أهم الموضوعات في الشعر، حيث نقم علها العديد من الشعراء العباسيين أمثال "**أبو نواس**" الذي لجأ إلى «**العبث ذي الطابع التمردي، فأحرق نفسه والمجتمع الذي احتقره وسحقه، واتخذ من الأمور التي تعد في نظر المجتمع خطيئة مبدأ حيا ومادة خاما لشعره وإطار حياته**»[1]، ويقصد بالخطيئة شرب الخمر الذي توسله الشاعر للهروب من الواقع من جهة ومخالفة مبادئ المجتمع من جهة أخرى، هذا المجتمع الذي عرفه «**كثافة بشرية واختلاف في المشارب والاتجاهات، ووجهات النظر، وفقدان لتماسك الصلات وتصدع العلاقات وتعقدها وتزعزع القيم، ومن ثمة تيهان الذات وشعورها بالقهر والمعاصرة والانسحاق**»[2].

في حين نجد أنّ المدينة في الحضارة الأندلسية احتلّت مكانة مرموقة: «**فقد بلغت لأندلس من الحضارة والمدينة ما لم تبلغه بلدة من البلدان العربية التي سكنها العرب المسلمون**»[3]، خاصة في ظل الطبيعة الخلّابة التي تميزت بها، «**فقد غدت درة الزمان وجنة الأرض، وفتنة الدهر**»[4]، فسكنت روح سكانها وزائريها على حد سواء، حيث تحدث عنها الأدباء والشعراء، فتغزلوا بجمالها تارة، ورثوا مدنا التي سقطت في أيدي الصليبيين تارة أخرى، ولعل مرثية "**ابن الأبّار**" خير دليل على ذلك.

هذا عن بعض ملامح اهتمام الشعراء العرب القدامى بالمكان، إلا أن المدينة كموضوع «**فكرة شديدة المعاصرة، ترتبط بالقرن العشرين ومنجزاته**»[5]، وقد تحدث عنها

---

[1] قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 48.

[2] المرجع نفسه، ص 47.

[3] المرجع نفسه، ص 62.

[4] المرجع نفسه، ص. 62.

[5] مختار أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة،الكويت، (دط) أفريل1995 ص8.

الكثير من الأدباء في أعمالهم الأدبية سواء الشعرية أم النثرية، حيث تعتبر من أبرز السمات في الأدب الحديث والمعاصر.

3- المدينة في الأدب العربي الحديث:

يعتبر موضوع المدينة من الموضوعات البارزة في الأدب لعربي الحديث، فقد تحدث عنها الكثير من الشعراء والأدباء العرب «وكانت **مصدر اهتمامهم منذ ديوان "مدينة بلا قلب: "لعبد المعطي حجازي"، إلى ديوان "قلبي وغازلة الثوب الأزرق" "لمحمد إبراهيم أبو سنة"**»[1].

ويرجع العديد من النقاد العناية بموضوع المدينة إلى تأثر الشعراء العرب بالثقافة الغربية، وخاصة قصيدة "**الأرض الخراب**" "**لإليوت**"، يقول الناقد "**عز الدين اسماعيل**" في هذا الشأن:«**أما فيما يخص مصدر هذا الاهتمام، فإنه يظن أن الدافع الأول إليه دافع خارجي جاء نتيجة لتأثر الشعراء المعاصرين بنماذج من الشعر الغربي، وبقصيدة الأرض الخراب لإليوت على وجه الخصوص(...)، وقد ظهر هذا التأثر مبكرا، منذ أوائل حركة التجديد الأخير، ثم شاع واستفاض بين الشعراء، سواء منهم من قرأ أليوت ومن لم يقرأه**»[2].

لكن الناقد لا يجعل التأثر للغربي هو المصدر الوحيد لاهتمام الشعراء العرب بموضوع المدينة، حيث يقول:«**على أنه مهما قيل في شأن هذا التأثر فلا شك في استجابة الشعراء المعاصرين لهذا الموضوع تتجاوز حدود التأثر، فلو لم يكن لهذا الموضوع وقع معين في نفوسهم، وما لم يكن له كيانه البارز في واقع الحياة التي يمارسونها، ما ظفر منهم بهذه العناية الفائقة، أقول لابد أن ظروف الحياة التي يمارسونها، والإطار الحضاري**

---

[1] خيرة حربو، ثنائية المدينة والريف في شعر بدر شاكر السياب، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، مج 22، ع 2، 2014، ص 341.

[2] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، ط3، (دت)، ص 326.

الذي يعيش فيه شعراؤنا المعاصرون، وواقع التجربة التي يعانيها هؤلاء الشعراء هي التي ارتفعت بهذا الموضوع إلى مستوى الاهتمام"[1].

فالناقد يضيف إلى جانب التأثر بالغرب مصدرا آخر لاهتمام الشعراء بهذا الموضوع وهو وقع الموضوع (المدينة) في نفوسهم وتأثرهم به، بالإضافة إلى ظروف حياتهم والإطار الذي يعيشون فيه بمختلف مؤثراته.

واهتمام الشعراء العرب بالمدينة لم يكن اهتمام بالجانب الجغرافي أو التوبغرافي بقدر ما كان اهتمام بالجانب الرمزي، حيث جعلوا من المدينة رمزا رصدوا من خلاله تجاربهم الحياتية في ظل هذه المدينة الرمز، لذلك «لم **تعد المدينة في الشعر العربي الحديث موقعا جغرافيا وطبوغرافيا بقدر ما أضحت إيحاءً للخير والجمال أو إيحاءً للبؤس والاغتراب، كما قد تصير رمزا للألم والضياع، فغابت أبعادها الهندسية المادية وتحولت إلى طاقة استعارية رمزية تمد الشاعر بالإلهام».[2]**

فكل شاعر يملك نظرته الخاصة به حول مدينته، كما يعيش تجربته الخاصة أيضا بين أحضانها فيشكل في خياله مدينته الخاصة، فقد تكون مدينة حافلة متلألئة بالأنوار، كما قد تكون مدينة مظلمة موحشة،«**وقد تصبح عند أحدهم امرأة فاتنة يتغزل بها، أو تصبح غولا يهد حياته، ويمارس عليه كل أنواع القسوة»[3].**

ومن أبرز الشعراء العرب الذين جسدوا موضوع المدينة في قصائدهم نجد "**بدر شاكر السياب**" الذي نزح من قريته "جيكور"، و"**أحمد عبد المعطي حجازي**" الذي انتقل من قريته

---

[1] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 326- 327.

[2] علي حمودين، الأدب العربي المعاصر: ملامح وقضايا، جامعة قاصدي مرباح، قسم اللغة والأدب العربي، ص 46. http:// Elearn. Univ-ourgla.dz

[3] مرجع نفسه، ص 47.

"تَلاَّ"، وكذلك "**صلاح عبد الصبور**" الذي غادر قريته "الزقازيق"، وغيرهم كثير ممن ترك قريته وانتقل إلى المدينة، يحملون في عيونهم تطلعات في اكتشاف علم جديد.[1]

يقول "**بدر شاكر السياب**" في قصيدته "**جيكور والمدينة**":

وتلتف حولي دروب المدينة.

حبالا من الطين يَمْضَغَنَّ قلبي، ويعطين عن جمرة فيه طينة.

حبالا من النار يجلِدنَ عُرف العقول الحزينة.

ويحرقن "جيكور" في قاع روحي، ويزر عن فيها رماد الضغينة.[2]

صوّر الشاعر في هذه الأبيات المدينة وكأنها وحش يزرع الرعب في النفوس، وبسبب هذه المدينة زرعت القسوة والكره في روحه، فقد «**كانت المدينة تبدو كئيبة قبيحة الوجه أمام الشاعر، ترسف أغلال العبودية وتمارس مع أهلها الظلم والاستعباد**».[3]

ويقول في قصيدة أخرى "**العودة إلى جيكور**":

على جواد الحلم الأشهب.

أسريت عبر التلال.

أهرب منها، من ذرأها الطوال،

من سوقها المكتظ بالبائعين.

---

[1] مختار أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 11.

[2] ديوان بدر شاكر السياب، (دط)، (دت)، ص 226.

[3] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، مرجع سابق، ص 347.

من صبحها المتعب.

من ليلها النابح والعابرين،

من نورها الغيهب

من ربص المغسول بالخمر،

من عارها المخبوء بالزهر

من موتها الساري على النهر.[1]

في هذه الأبيات صور لنا الشاعر المدينة وبعض صفاتها التي لم يتحملها، ما جعله يهرب منها عائدا إلى قريته "جيكور" فسوقها المكتظ وليلها النابح، وصبحها المتعب وعارها المغبوء بالزهر، كل ذلك لم يرق للشاعر، فقرر العودة إلى قريته أين يجد الهدوء والسكينة.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "**أفياء جيكور**" نجد الشاعر يتغنى بقريته، يقول:

جيكور، جيكور، يا حقلا من نور

يا جدولا من فراشات نطاردها

في الليل، في عالم الأحلام والقمر.[2]

في هذه الأبيات يتغنى الشاعر بطبيعة قريته الهادئة التي تغرس في النفس الأمن والطمأنينة، عكس المدينة التي لم تزده إلا هما وحزنا.

ولا يختلف رأي "**أحمد عبد المعطي حجازي**" عن رأي "**السياب**" حول المدينة، حيث جسده في ديوانه "**مدينة بلا قلب**"، ولعل العنوان هو لسان حل الديوان.

[1] ديوان بدر شاكر السياب، ص 230.

[2] مرجع نفسه، ص 108.

يقول الشاعر قصيدة "**كان لي قلب**":

وجاء مساء.

وكنت على الطريق الملتوي أمشي

وقريتنا.. بحضن المغرب الشفقي

تنام على مشارفها ظلال نخيل

ومئذنة.. تلوّى ظلّها في صفحة الترعة

وكنت أرى عِناق الزهرِ للزهرِ

وأسمعُ غمغماتِ الطيرِ للطيرِ

ونازعني إليك حنين

وناداني إلى عشك،

إلى عشي

طريق ضمّ أقدامي ثلاث سنين

ولكني ذكرت حكاية الأمس،

سمعت الريح تجهشُ في ذُرى الصفصاف،

تقول.. وداع

ملاكي! طيري الغائب!

حزمت متاعي الخاوي إلى اللقمة

وفُتُّ سنينيَ العشرين في دربِك

وحنّ على ملاحٌ وقال.. اركب

فألقيتُ المتاع، ونمت في المركب.[1]

في هذه الأبيات يصف الشاعر "**حجازي**" لحظة مغادرته لقريته، وحنينه لها قبل مغادرتها.

وفي قصيدة "**الطريق إلى السيدة**" «**تتبلور تجربة "أحمد عبد المعطي حجازي" في المدينة على نحو واضح، تأخذ فيه الجمل الشعرية القصيرة مكانا بارزا، مصورا نوعا من المشاعر المكثفة، دافعة بالمواجهة بين الشاعر والمدينة إلى مستوى جديد**»[2].

يقول الشاعر:

يا عم من أين الطريق؟

أين طريق السيدة؟

أيمن قليلا ثم أيسر يا بني

قال ولم ينظر إلي

وسرت إلى المدينة

أرقرق الآه الحزينة

أجر ساقي المجهدة للسيدة

[1] عبد المعطي حجازي، ديوان مدينة بلا قلب، منتديات مكتبة العرب، (دط)، (دت)، ص12.13.

[2] علي حمودين، الأدب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 49.

بلا نقود، جائع حتى الحياء

بلا رفيق

كأنني طفل رمته خاطئة

فلم يعره العابرون في الطريق

حتى الرثاء.[1]

في هذه الأبيات صور لنا الشاعر حاله وهو ضائع بين أحضان المدينة الغريبة عليه، والتي لم ترحمه، لا هي ولا أهلها، وكذا شعوره بالوحدة لأنه بلا رفيق، ولم يلق من أهل المدينة أدنى شفقة حتى التحسر على حاله، فهذه المدينة في نظره حقا بلا قلب، كما جاء في عنوان ديوانه، فهي مدينة غرست في روحه الحزن والأسى والوحدة والضياع.

ولا تختلف نظرة الشعراء المحدثين عن نظرة "**السياب**" و"**حجازي**" للمدينة، فغيرهما كثير ممن عانوا الويلات من المدينة، وملئت قلوبهم بالألم والعذاب، منهم "**صلاح عبد الصبور**" الذي ارتبطت مدينته بالحزن المقطر، و"**عبد الوهاب البياتي**" ومدينته التي ربطها بالقلق الإنساني الوجودي.[2]

هذا عن صورة المدينة في الأعمال الشعرية العربية الحديثة، والتي لا تختلف كثيرا عن صورتها في الأعمال الروائية العربية الحديثة.

فرضت المدينة حضورها في الرواية كما فرضته على الأدب بشكل عام، إذ تعتبر العلاقة بين المدينة والرواية علاقة انسجام وترابط «**فالرواية تستأثر من بين الأجناس الأخرى بقدرتها على اكتناه معنى المدينة أو فكرتها الجوهرية، تركيبيا، بوصف طريقة**

[1] عبد المعطي حجازي، ديوان مدينة بلا قلب، ص 17- 18.

[2] ينظر،علي حمودين، الأدب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 51.

التركيب سبيلا لا نتاج المعنى، فالرواية قائمة على أساس التنوع والتراكب اللذين يسمان مدينية أية مدينة"[1]

فالرواية ذات زمان مركب كالمدينة التي تمر عليها أزمنة متعاقبة، فلا يمكن أن تبنى مدينة في وقت زمني محدد، والأمكنة في الرواية متعددة كتعددها في المدينة، وكذا تعدد الشخصيات في الرواية يقابله تعدد ساكني المدينة وغيرها من التقابلات التركيبية بين المدينة والرواية.

ولا يكاد يختلف موقف الروائيين العرب عن موقف الشعراء من المدينة، إذ سعوا إلى «**التعبير عن عالم المدينة بتأثيراته المتناقضة وصوره المختلفة، التي صاغ تناقضاتها واختلافها تعارض العناصر داخل عالم المدينة، ثم تعارض المواقف منها، وقد تراوحت هذه المواقف بين حدين متباعدين، من التغني بعالم المدينة إلى نشدان الهرب منه، ومن الاستسلام لغوايته إلى التعبير عن رفضه، ومن النظر إليه على أنه سبيل الرقي والتحضير إلى تأكيد أنّه تكريس لاغتراب الإنسان ولانفصاله عن الطبيعة ونأي به عن فرص الحياة الحقيقية**».[2]

فالمدينة تجمع المتناقضات، وتباينت رؤى الروائيين حولها، فمنهم من نظر إليها على أنها سبيل الرقي والتحضر، ومنهم من اعتبرها سبيلا لفقدان الإنسانية والغرق في بحر الآثام.

---

[1] صلاح صالح، المدينة الضحلة ثريب المدينة في الرواية العربية، منشورات الهيئة العامة الدورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2004، ص 37- 38.

[2] حسن حمودة، الرواية والمدينة: نماذج من كتاب الستينيات في مصر، شركة الأمل للطباعة والنشر مصر،سبتمبر 2000، ص 23.

وقد تجلت المدينة العربية في الروايات الحديثة مثل: روايات "**نجيب محفوظ**" والتي حضرت فيها مدينة القاهرة بمختلف معالمها وأحيائها، وكذلك ثلاثية "**رجاء عالم**" (طريق الحرير، مسرى يا رقيب، سيديد وحدانه) التي تجلت فيها معالم مكة المكرمة.[1]

وكذا رواية "**زينب والعرش**" **لفتحي غانم**، و"**مالك الحزين**" **لإبراهيم أصلان**، ولا يقتصر الأمر على الرواية المصرية، فهناك طنجة في "**الخبز الصافي**" **لمحمد شكري** والجزائر في "**فوضى الحواس**" **لأحلام مستغانمي**، ودمشق في "**الرواية المستحيلة**" ل**غادة السمان**، وعمان في "**حارس المدينة الضائعة**" **لإبراهيم نصر الله**، وكذا الروايات التي تناولت المدن الفلسطينية مثل: "**عائد من حيفا**" **لغسان كنفاني**، وبيروت في "**الوجوه البيضاء**" **لإلياس خوري**، و"**الممر**" **لياسين رفاعيه**.[2] وغيرها من الأعمال الروائية التي جسدت حضور المدن العربية.

مما سبق نجد أن الأديب العربي روائيا كان أم شاعرا تناول موضوع المدينة حسب رؤيته الحاصة لها، وتجربته الحياتية التي عاشها بين أحضانها.

[1] أحمد جاسم الحسين، الرواية العربية الجديدة وخصوصية المكان –قراءة في روايات "رجاء عالم"–، مجلة جامعة دمشق، سوريا، مج: 25، ع 1 و2، 2009، ص 111.

[2] صلاح صالح، المدينة الضحلة، مرجع سابق، ص 45، 46.

4- مدينة قسنطينة في الأدب الجزائري:

يعتبر الأدب الجزائري حلقة من الحلقات التي تشكل سلسلة الأدب العربي؛إذ «**يمثل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي، ولئن حالت الظروف دون نشر هذه الصفحة أو إلقاء الضوء عليها، فإن ذلك لا يقلل من أهميتها القومية، بل ربما حفز الباحثين إلى بذل الجهود لنشرها ووضعها في مكانها من تراث الأمة العربية الأدبي(...)، والواقع أن الحديث عن الأدب الجزائري يشبه إلى حد كبير كل حديث عن الأدب العربي بصفة عامة في كل بيئة من بيئتها الوطنية، فقد عاش هذا الأديب نفس الظروف والمشكلات التاريخية والفكرية التي عاشها الأدب العربي**»[1] فلا الجزائر ولا الأدب الذي يمثلها كانا بمنأى عن الأحداث والمشكلات التي عاشها الوطن العربي، وبما أن تيمة المدينة من التيمات التي اجتاحت الأدب العربي، فقد كان للأدب الجزائري هو الآخر حصة في ذلك.

فقد قدمت مدينة تلمسان في "**الدار الكبيرة**" **لمحمد ديب** عالما يكاد ينضج بتفاصيل الحقيقة المصاحبة للحرب العالمية، في حين تميزت مدينة الجزائر في رواية "**بان الصبح**" **لعبد الحميد بن هدوقة** بطابع الازدحام، أما عن صورتها في رواية "**طيور في الظهيرة**" **لمرزاق بقطاش** فقد سلّط هذا الأخير الضوء على فترة الاستعمار وحال المدينة في تلك الفترة.[2]

أما عن تجليات المدينة في الشعر، فهي مدينة "**بسكرة**" التي جعل منها **شارف عامر** استثناء المدن الجزائرية، وهي مدينة "**بجاية**" التي فر إليها **عثمان لوصيف** هربا من حر

---

[1] أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب،الجزائر، ط5، 2007 ص 21.

[2] ينظر،محمد صالح خرفي، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر،مخطوط أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه العلوم، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،2006.

مدينة "**بسكرة**"، وهي مدينة "**بجاية**" عند **محمد بن رقطان** الذي عاد إليها ليستلهم تاريخها ومجدها.[1]

هذا عن بعض المدن الجزائرية التي كان لها حضور في الأدب الجزائري، فماذا عن مدينة قسنطينة وتجلياتها في الشعر والرواية وأدب الرحلات الجزائري؟

4-1/ التعريف بمدينة قسنطينة:

أ- موقع المدينة وطبيعتها:

مدينة قسنطينة، مدينة الجسور المعلّقة وعاصمة الشرق الجزائري، تعتبر من كبريات المدن الجزائرية مساحة وسكانا، «**تقع فلكيا على خط عرض 23- 36° شمالا، وخط طول 36- 07°شرقا، وهي بذلك تحتل موقعا متميزا بالنسبة لشرق الدولة الجزائرية**»[2].

تتميز المدينة بكونها مبنية على صخرة من الكلس القاسي، مما أعطاها منظرا فريدا يستحيل أن يوجد مثله في أي مدينة عبر العالم، وللعبور من ضفة إلى أخرى شيدت عبر العصور جسور، فأصبحت قسنطينة تضم أكثر من ثمانية (08) جسور، بعضها تحطم لانعدام الترميم وبعضها مازال يصارع الزمن، لذا سميت "مدينة الجسور المعلقة".[3]

---

[1] سليم بتقة، الريف في الرواية الجزائرية –دراسة تحليلية مقارنة–، مخطوط رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2010، ص 09.

[2] يمينة سعودي، الحياة الأدبية في قسنطينة (خلال الفترة العثمانية)، مخطوط بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم،جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2006، ص 10.

[3] أحلام صابرينة طرشي، صناعة النحاس بقسنطينة (دراسة فنية)،مخطوط مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2012، ص 14.

ونظرا لتضاريس مدينة قسنطينة الوعرة وأخدود وادي الرمال العميق الذي يشقها، أقيمت عليها سبعة جسور لتسهيل حركة التنقل، وهذه الجسور هي:[1]

1. **جسر باب القنطرة:** يعتبر من أقدم الجسور في المدينة بناه الأتراك سنة 1792م هدمه الاحتلال الفرنسي الذي بنى الجسر الموجود حاليا مكانه سنة 1863م.
2. **جسر سيدي راشد:** جسر حجري قديم، داخل الخدمة سنة 1912م طوله 447م وعرضه 12 متر، وارتفاعه 105م، هو محمول على 27 قوس قطر أكبرها 70 م، يربط وسط المدينة مع محطة السكة الحديدية.
3. **جسر سيدي مسيد:** يعتبر من أعلى الجسر المعلقة في قسنطينة، يقع فوق الوادي طوله 168م، وارتفاعه 175م، تم بناؤه من طرف الفرنسيين عام 1912م.
4. **جسر سيدي ملاح سليمان:** هو جسر حديد مخصص للراجلين فقط طوله 125م وعرضه 2,5م، يربط المدينة القديمة بوسط المدينة التجاري.
5. **جسر مجاز الختم:** هو جسر أحادي الاتجاه، يمتد ليصل إلى شارع "رحماني عاشور".
6. **جسر الشيطان:** هو جسر صغير يقع أسفل واد الرمال يربط بين ضفتيه.
7. **جسر الشلالات:** بني سنة 1926م، يقع أعلى الطريق المؤدي للمسبح، تمر مياه واد الرمال فوقه، ومن تحته مكونة بذلك شلالات.
8. **الجسر العملاق:** يعتبر من المشاريع الكبرى في قسنطينة في إطار المخطط الخماسي للفترة 2010- 2014م، يمتد من مرتفعات المنصورة لحي جنان الزيتون، يضم طريقين ذهابا وإيابا، نقع سكتي الترامواي وسطه.

ب- أصل التسمية:

اختلفت الآراء وتباينت حول أصل تسمية مدينة قسنطينة بهذا الاسم، ولكن قبل الاستقرار عند هذا الأخير، عرفت المدينة عدة تسميات عبر تاريخها الطويل، أي منذ نشأتها

[1] قسنطينة، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، http://ar.wikipedia.org/wiki.

إلى يومنا الحالي، فقد وردت عدة تسميات في بعض المصادر والمراجع، وكذلك على ألسنة كبار الشيوخ، ومنها: سيرتا، قوطة، بلد الهواء، بلدة الهوى، مستعمرة سيتيوس، الحصن الإفريقي، قسنطينة وغيرها من الأسماء، وسنتعرض بشيء من التفصيل لكل اسم من هذه الأسماء.

من بين أقدم الأسماء التي عرفت بها المدينة اسم "**سيرتا Cirta**"، الذي يقال أنه سامي الأصل وأنه تحريف للاسم الحقيقي "**كرتن Crtn**"، ومعنى هذا الاسم "المدينة" أو "القلعة"، وقد ظهر إلى الوجود على قاعدة نوميديا الوسطى منذ بداية القرن الثالث قبل الميلاد (3 ق.م)، وذلك بعد انقسام موريتانيا الشرقية إلى قسمين:

- الشرقية وعاصمتها سطيف (مويطانيا السطيفية).
- الوسطى وعاصمتها سيرتا.[1]

كما يمكن الإشارة إلى أن اسم "**سيرتا**" يعود بدوره إلى بداية الاحتلال الروماني لنوميديا الذي يؤرخ له بسنة (46 ق.م)، حين أصبحت "سيرتا" عاصمة للاتحاد السيرتي الذي أنشأه المغامر (**سيتيوس P. Sitios**)[2]، ومنه جاء اسم مستعمرة "**سيتيوس**".

ومن أسماء المدينة أيضا "**بلد الهواء**" أو "**بلدة الهوى**"، وقد «**فسر سيدي "عمر الوزان" معنى الكلمتين في رسالة صافية إلى "حسن آغا" والي الجزائر يقول فيها: فالبلدة هذه المسماة "بلدة الهوى"، حسي ومعنوي، فهواؤها الحسي لا يزيد ولا ينق فهي مرآة**

[1] محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، (دط)، 1998، ص 12.

[2] محمد الصغير غانم، قسنطينة عبر تاريخها القديم، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999، ص 140.

البصر، وهواها المعنوي يزيد وينمو بحسب الليالي والأيام، كما هو مشاهد لكل ذي بصيرة...».[1]

وسميت كذلك "**بالحصن الإفريقي**" فقد كانت أسوارها منيعة وقلاعها محصنة للغاية، وبما أن الجزائر كانت بوابة العالم إلى إفريقيا، وكانت قسنطينة جزءا لا يتجزأ من الجزائر، فهي إذن من هذه البوابة فوجب عليها أن تكون حصينة.[2]

وفي ما يخص التسمية الحالية التي تعرف بها المدينة «**فيعود تاريخها إلى بداية القرن الرابع للميلاد، والتي تنسب إلى "قسطنطين الكبير" الذي أعاد بناءها ورمم أسوارها وأعطاها هذا الاسم سنة 313م، وذلك بعد أن هدمها الصراع بين إمبراطور روما "ماكسانس" و"دومتيوس ألكسندر»**[3]

وهناك من الباحثين والمؤرخين من يرجح أن اسم المدينة «**مركب من كلمتين هما: "قصر" و"طينة" فاجتمعت الكلمتان بحكم النطق المتغير والتطور الزمني في كلمة "قسنطينة" وذلك بإبدال الصاد سينا والراء نونا، ويرى بعض المؤرخين وخاصة الفرنسيون منهم والذين يدينون بالولاء إلى الرومان أن ها الاسم المستقر (قسنطينة) راجع في الأصل إلى الرومان، ولو تتبعنا هذا الاسم عبر أزمنة المدينة المختلفة لوجدنا له تغيرات تكاد تلتقي جميعها في اسمها الحالي».**[4]

وهذا ما نجده عند العلامة "**أحمد بن الخطيب**" المعروف **بابن قنفد القسنطيني** (ت: 1081)، ولكن بإبدال لفظة "قصر" بـ "حصن"، حيث جاء في آخر أرجوزته الملكية المسماة: "بالسراج" اسم "حصن طينة" يقول:

---

[1] محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص 10.

[2] يمينة سعودي، الحياة الأدبية في قسنطينة (خلال الفترة العثمانية)، مرجع سابق، ص 14.

[3] محمد الصغير غانم، قسنطينة عبر تاريخها القديم، مرجع سابق، ص 140.

[4] عبد الحفيظ بواريو، مدينة قسنطينة في أدب الرحلات، مرجع سابق، ص 67.

أول ما ابتدأت فيه شعري مختبرا نظمي وحسن فكري

فجاء عذبا لأولي الألباب والحمد لله على الصواب

ثم صلاة الله ذي الجلال على النبي المصطفى والآل

وصحبة تترى على الترتيب من احمد بن أحسن الخطيب

يعرف بابن قنفد اشتهاره من حصن طينة فتلك داره[1]

أما في معجم البلدان نقف على اسم (قُسنطينة) حيث عرفت: «**قُسنطينة: بضم أوله وفتح ثانيه ثم النون وكسرة خفيفة، وهاء، مدينة وقلعة يقال لها قسنطينة الهواء، وهي قلعة كبيرة جدا، حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد، وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب، لها طريق واتصال بآثام متناسقة، جنوبيها تمتد منخفضة حتى تساوي الأرض، وحولها مزارع كثيرة، وإليها ينتهي رحيل عرب إفريقيا مغربين في طلب الكلأ، وتزاور عنها قلعة بني حماد ذات الجنوب في جبال وأراض وعرة...**».[2]

ج- أهم المحطات في تاريخ قسنطينة:

يقول **محمد العيد آل خليفة:**

واسأل معالمها الصوامت واستمع فمن المعالم ما يجيب سؤالا

ومن المعالم ما يفوه بحـــــــــال مالا يفوه به الفصاح مقالا

وأذكر أوائلها بني فينيقيـــــــــا وأذكر بها الرومان والوندالا

[1] سليمان الصيد، نفع الأزهار عما في قسنطينة من الأخيار، المطبعة الجزائرية، الجزائر، ط1، 1994، ص 10.

[2] ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، مج 4، ط2، 1995، ص 349.

وأذكر بها أتراكها وإن اعتدوا حالا فقد حرصوا الرعية حالا

و أذكر من البايات فيها صالحا فقد اعتنى وبنى بها فأطالا

واذكر من البايات أحمد إنه ذاد العدى عنها وصال وجالا [1]

تلخص هذه الأبيات الشعرية للشاعر الجزائري **محمد العيد آل خليفة** بعض أهم المحطات التاريخية التي مرت بها مدينة قسنطينة، هذه المدينة العريقة الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، تشهد عليها سلسلة الحضارات التي توالت عليها على مر العصور، ومنذ الأزمنة الغابرة «**فقد عرفت استقرار البشر منذ ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد، حيث سكن أهلها الكهوف والمغارات المتواجدة على سفوحها، وسكنوا الأدغال المتواجد حول الوادي، والبحيرة القديمة، فقد وجدت بقايا لرسوم منقوشة على الصخور بالوادي وعثر على أدوات حجرية قديمة**»[2]، وكهف الدببة بالصخرة الشمالية خير شاهد على ذلك، وغيره من الكهوف والمغارات التي تزخر بها المدينة.

أما بداية تاريخ المنطقة فيرجعه بعض المؤرخون إلى قدوم الأمازيغ وانتظامهم في قبائل، وأطلق الإغريق عليهم اسم الليبيين النوميديين، وينتسب تأسيس قسنطينة إلى التجار الفينيقيين[3].

وفي عدد من الدراسات وعمليات التنقيب الحديثة ما يدل على أن مدينة قسنطينة «كانت عاصمة لقبائل" الماسيل" المنتشرة في الإقليم الشرقي لبلاد الجزائر والإقليم الغربي للديار التونسية، واشهرت هذه القبائل بتربية المواشي وخدمة الأرض، لأن أراضي هذه

[1] ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، (دط)، (دت)، ص 308.

[2] محمد الهادي العروق، مدينة قسنطينة، دراسة في جغرافية العمران، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط)، (دت)، ص 44.

[3] أحلام صابرينة طرشي، صناعة النحاس بقسنطينة، مرجع سابق، ص 15.

المنطقة صالحة للزراعة، و بحكم مجاورة هذه القبائل لقرطاج المتحضرة التي تأسست (814 .ق.م) .

استطاعت الانتقال من العصر الحجري إلى العصر التاريخي، لترتقي من قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة لها دورها السياسي والإداري والتجاري الهام، ولتصبح السوق العالمية الثانية بعد مدينة قرطاج خاصة في عهد الملك " ماسينيسا" الذي كان معجبا بحضارة قرطاج لأنه نشأ في أحضانها وحارب من أجلها حتى أصبحت العادات والتقاليد الفينيقية هي السائدة في مدينة قسنطينة كغيرها من المدن الفينيقية.[1]

فبحكم التجاور الجغرافي مع مدينة "قرطاج" استطاعت المدينة السير في ركب الرقي والتحضر، خاصة في ظل الملك "**ماسينيسا**"، حيث سعى إلى تطوير المدينة في مختلف المجالات (الزراعة، الصناعة، التجارة...)، هذا ما جعل المدينة محل أطماع الأجانب من الإغريق والرومان وحتى القرطاجيين "فهذا التطور والاستقرار الذي عاشتهما المدينة في ظل العهد النوميدي والذي بلغت ذروته في العهد الملك "**ماسينيسا**" حرك أطماع الرومان فيها، ودغدغ رغبتهم في الاستئثار بخيراتها و أملاكها، فأخذوا يتطلعون إلى احتلالها، و في عهد "سيزار" في القرن الأول (ق م)، ودخلت مدينة (سيرتا) تحت حكم روما.[2]

وظلت المدينة على هذا الحال قرابة أربع سنوات إلى أن أمر بإعادة بنائها الملك الروماني **قسطنطين الأكبر**، و أعاد لها شيئا من وجهها الحضاري الذي عرفته من قبل.[3]

ثم دخلت قسنطينة تحت الحكم الوندالي في العقد الثالث من القرن الخامس ميلادي (432م- 534م)، ثم البيزنطي (534م-674م)، و في أواخر القرن السابع للميلاد

[1] محمد الهادي لعروق، مدينة قسنطينة، مرجع سابق، ص 18.

[2] عبد الحفيظ بورايو، مدينة قسنطينة، في أدب الرحلات، مرجع سابق، ص 71.

[3] م. ن، ص72.

استطاعت طلائع الفاتحين العرب المسلمين أن تقضي على الوجود البيزنطي بمدينة قرطاجة والمدن الأخرى التابعة لها ومنها قسنطينة التي دخلت تحت الحكم الاسلامي.[1]

عاشت قسنطينة منذ الفتح الاسلامي تحت ألوية حكم متعددة، فقد ظلت تابعة للقيروان على امتداد عهد الولاة منذ سنة (50هـ إلى سنة 182هـ)، ثم عهد الأغالبة منذ سنة (182هـ– 292هـ) والفاطميين منذ سنة (292هـ–362هـ)، ثم دخلت تحت الحكم الزيري من سنة (362هـ –442هـ) وهاجمها بنو هلال حوالي (462هـ)، ثم خرجت عنهم لتدخل تحت حكم الحماديين من سنة (504هـ –547هـ) و بقيت تحت حكم الموحدين حتى انتقل أبو زكريا الحفصي سنة (626هـ –1228هـ)، حيث انضوت تحت لواء الحفصيين إلى أن دخل الأتراك الجزائر في القرن الخامس عشر ميلادي، واستقر نفوذهم بها، وطمحوا إلى امتلاك قسنطينة فهاجمها حسن قائد خير الدين ما بين سنتي (1519هـ – 1520هـ/925هـ)، و استطاع احتلالها، ولم تلبث حتى دخلت تحت حكم الحفصي من جديد، غير أن الأتراك استردوها وحكموها إلى أن ثار عليهم أهلها سنة (979هـ /1572هـ)، واستطاع الأتراك أن يخمدوا ثورتهم وأن يخضعوا أسرة عبد المؤمن التي كانت تتزعم المعارض، منذ ذلك التاريخ نفوذ الأتراك بقسنطينة.[2]

وفي العهد التركي تم اختيار قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، حيث قام "**صالح باي**" الذي حكم المدينة ما بين (1771هـ – 1792هـ) بتهيئة المدينة واعطائها طابعها المتميز.

وفي سنة (1830م) ومع الاحتلال الفرنسي للجزائر، رفض أهالي المدينة الاعتراف بالسلطة الفرنسية، و قاد "**أحمد باي**" الحملة واستطاع أن يرد الفرنسيين، و بعد عدة سنوات من المحاولات الفاشلة، تمكن الجيش الفرنسي من الظفر بالمدينة واحتلالها، لكن قسنطينة بقيت صامدة في وجه الاستعمار، متمسكة بعروبتها وإسلامها، والفضل في ذلك يعود إلى أبنائها وعلمائها وشيوخها خاصة جهود العلامة "ابن باديس" و رفاقه وأعضاء ج. ع. م.

[1] عبد الحفيظ بورايو، مدينة قسنطينة، في أدب الرحلات، مرجع سابق، ص 72.

[2] مرجع نفسه، ص 74.

من خلال هذه اللمحة الموجزة لأهم المحطات التاريخية لمدينة قسنطينة، يتجلى لنا صمود هذه المدينة اللّغز التي أعيت غزاتها وأرهقت مؤرخيها الذين حاولوا فك رموزها وأسرارها، كما تتجلى لنا عراقة وقدم هذه المدينة الساحرة التي كانت ولازالت صامدة في وجه إعصار الزمن.

4-2/ قسنطينة في الأدب الجزائري:

احتلت مدينة قسنطينة مكانة مرموقة في الأدب الجزائري، حيث ظهرت ملامحها في القصائد والروايات وحتى في أدب الرحلات، فقد تغنى بها الشعراء، واتخذها الرواة مسرحا لشخصياتهم وأحداثهم، كما ذكرها الرحالة في رحلاتهم واصفين شوارعها وجسورها وجوامعها وأسواقها، وغيرها من المعالم التي تزخر بها المدينة.

أ- قسنطينة في الشعر الجزائري :

لمدينة قسنطينة في الشعر الجزائري مكانة خاصة، حيث تربطها بالشاعر الجزائري علاقة وطيدة، فهذا الأخير تغنى بها ووصفها بأنها مدينة العلم والعلماء، مدينة التاريخ والعظماء.

ومن هؤلاء الشعراء **محمد العيد آل خليفة** الذي ذكر تاريخها في أبيات شعرية، وصف ثقافتها وحضارتها قائلا:

قم حي أخت (الآسِتانة) نشأة وحضارة ونظارةً وجمالا
سرِّح بساحة (باب واديها) الخطاه وانظـر يمينـا وشمـــالا
تيهي بحسنك يا قسنطي و افخري وعلى العواصم فاسحبي الأذيال
بلد الهواء دعوك أم بلد الهوى أنى أرى لذا وذاك مجالا.[1]

ويقول "**عبد الكريم العقون**" واصفا مجدها وذكرياتها قائلا:

قسنطينة الغراء يا مجد أجدادي عليك سلام من الله قلبي الهادي

[1] ديوان محمد العيد آل خليفة، مرجع سابق، ص 309.

قسنطينة كم ذكريات تجدد بلقياك و الذكر لقلبي كـــالـــزاد

ذكرت سماع عبد الحميد وعهده وأيامه الغراء جاءت بـــاسعـــاد.[1]

كما وصفها "**مصطفى بن دحمون**" بعروس العلم إحدى الصفات اللصيقة بالمدينة وواحدة من أسمائها التي اشتهرت بها "مدينة العلم والعلماء"، ويقول:

يا قسنطينة يا مهد الجمال يا عروس العلم يا روض الخلود

بك سرتا لم تزل مزهوة و بأمثالـــك تعـــــتز البـــــلاد[2]

في حين اعتمد الشاعر "**عبد الله حمادي**" على تاريخ قسنطينة في مقارنته بين ماضي المدينة وحاضرها، آملا أن بعيد التاريخ نفسه ويعود المجد لقسنطينة العلم والعز والشرف يقول:

قسنطينة اهتزي فجمعك حافل و مجدك مأثور و شعبك باسل

فمالي أرى طبق السكون مخيما وليلك مكحول ونجمك آفل

بمن يهتدي ركب الأحبة في السرى وبدرك منهوك العزائم هازل

فكانت وكان العلم فيها كشعلة وكانت وكان العز فيها يشاكل[3]

وهكذا سكنت مدينة قسنطينة روح هؤلاء الشعراء وغيرهم من الذين زينوا قصائدهم باسمها ووشحوها بصفاتها خاصة وأنها شمعة العلم التي تضيء الجزائر.

ب- قسنطينة في الرواية الجزائرية:

حضرت مدينة قسنطينة في الرواية الجزائرية في بعض الأحيان بثوب الأرض الأم التي عاد إليها أبناؤها بعد غياب طويل، ولعل هذه الصورة تجلت بوضوح في رواية "**الزلزال**" للروائي الجزائري "**الطاهر وطار**" من خلال شخصية **عبد المجيد بولرواح**، الذي عاد إلى

[1] إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي الجزائر أنموذجا(1925-1962)،دار هومة،ط2، ص104.

[2] مرجع نفسه، ص 104.

[3] محمد صالح خرفي، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص 200.

المدينة بغية الحيلولة دون جرد أملاكه وأراضيه لكنه يصطدم بصورة قسنطينة المغايرة التي ألفها وتركها قبل مغادرته، فمن خلال هذه الرواية تتجلى لنا من خلال شخصياتها وخاصة شخصية البطل "**بولرواح**" ملامحها الجغرافية، خاصة شوارعها وجسورها ووواديها، وأسواقها وحتى روائحها المميزة وازدحام سكانها.

والمدينة من خلال مونولوج "**بولرواح**"، ذات طابع فلاحي والدليل على ذلك قوله: «**مغزى الحبوب الشاذ الوضع، وكأنما لم يفكر واضعوه إلا في إقامة دليل متواصل، على أن المدينة أساسا، عاصمة فلاحية، أو في إشعار السكان بأن هناك مدخرا من القمح والشعير...**»[1]

كما وصفها من الناحية التبوغرافية، فهي مبنية على صخرة كبيرة يفصلها واد الرمال إلى طرفين، يربط بينهما سبعة جسور «**هذا الجسر أفضل جسور قسنطينة السبعة عريض وقصير، سرعان ما ينسى الإنسان الهوة التي بينه وبين الوادي**»[2]

كما يتجلى المظهر التوبوغرافي أيضا في بناء الرواية، حيث تحتوي الرواية على سبعة فصول يستمد كل فصل عنوانه من أحد الجسور، بدءً "بباب القنطرة"، وانتهاءً "بجسر الهواء"، تربط هذه الجسور بين شقي المدينة التي يتوسطها نهر عظيم. وعندما يتيه بوالأرواح وتختلط عليه الأمور، ويصبح عاجزا على إيجاد الحل، يفكر بأن يقذف بنفسه وسط النهر، فلعله بهذا – يجد مخرجا– يقول: «**أقذف بنفسي وسط هذا الموج وأتدافع معه، حتى أجد مخرجا، من هذا التيه. هل أغدر؟ هل أصعد؟ هنا التيار يسير في جميع الاتجاهات يصعد وينزل...**»[3]

---

[1] الطاهر وطار، الزلزال (رواية)، ص 06.

[2] الرواية، ص 06.

[3] الرواية، ص 209.

يمكن القول حول رواية "**الزلزال**" أنها رواية مدينة قسنطينة، حيث تجلت هذه الأخيرة بمختلف معالمها الجغرافية والحضارية، وبمختلف تحولاتها الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية. كما اتخذ الروائي من شخصية " بولرواح" سبيلا للمقابلة بين ماضي المدينة وحاضرها، فالمدينة الحقيقية في نظر "بولرواح" هي قسنطينة الثلاثينات والأربعينات أما قسنطينة السبعينات فهي المدينة الزيف والوهم.

- **قسنطينة في ثلاثية أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد، عابر سرير، فوضى الحواس)**

ولا تختلف ثلاثية الروائية الجزائرية "**أحلام مستغانمي**" عن رواية "الزلزال" في تناولها لمدينة قسنطينة، حيث تجلى لنا الجانب التوبوغرافي وكذا الجانب الحضاري في هذه الثلاثية. كما صورت هذه الأخيرة ماضي المدينة وحاضرها، إلى جانب الحياة العامة للمجتمع القسنطيني.

تجلت صورة قسنطينة في رواية "**ذاكرة الجسد**" من خلال المرأة "أحلام"، فقد مثلت هذه الأخيرة الجزائر عامة، وقسنطينة على وجه الخصوص، فقد أشار بطل الرواية "خالد" إلى المدينة من خلال قوله: «**المرأة التي أغرتني بأكل التفاح لا أكثر، لأكون معك، ولم يكن بإمكاني أن أتنكر لأكثر من رجل يسكنني، لعبة حواء! أنت بالذات في حماقة آدم**»[1]

كما شبه حالة المدينة بالمرأة أحلام: «**ها هي ذي قسنطينة، مضمونة الأطوار، محمومة الشفاه، باردة الأطراف والأقدام...**»[2]

من جهة أخرى نجد وصفا لبعض عادات سكان المدينة في الرواية، منها عادة شرب القهوة بماء الزهر «**صينية قهوة نحاسية كبيرة عليها إبريق، فتنسحب لتعود بعد لحظات،**

[1] أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد (رواية)، ص 05.

[2] الرواية، ص 06.

وصحن للحلويات، ومرش لماء الزهر، وسكرية وفناجين...»[1] ، فعادة شرب القهوة عند العائلات القسنطينية، خاصة قهوة العصر، عادة متأصلة فيهم.

ولعل أول لوحة رسمها "خالد" دليل على ولعه بوطنه وارتباطه به رغم الظروف التي عاشها، فقد مثلت اللوحة "قنطرة الحبال"، وفي ذلك استحضار وظهور لمدينة قسنطينة في ذاكرة البطل وفي الرواية ككل.

أما حضور المدينة في رواية "**عابر سرير**" فقد تجلت من خلال وصفها واستذكار معالمها وعاداتها، من طرف بطل الرواية المصور الذي انتحل شخصيته "خالد بن طوبال" في رواية ذاكرة الجسد، وأصدقائه (مراد، ناصر...)، فقد شبه المصور المرأة التي يصحبها وهي ترقص بقسنطينة حيث قال: «**كأنها قسنطينة، كلما تحرك شيء فيها، حدث اضطراب جيولوجي، واهتزت الجسور من حولها، ولا يمكنها ان ترقص إلا على جثث رجالها**».[2]

من جهة أخرى نجد حديثا عن بعض جسور المدينة على لسان البطل الذي زار معرض في باريس، وجه فيه لوحات تمثل جسور قسنطينة «**جسر باب القنطرة، أقدم الجسور في قسنطينة، وجسر سيدي راشد بأقواسه الحجرية العالية، ذات الأقطار المتفاوتة، وجسر الشلالات مختبئا كصغير بين الوديان، وحده جسر سيدي مسيد أعلى جسور قسنطينة كان مرسوما بطريقة مختلفة على لوحة فريدة تمثل جسرا معلقا من الطرفين بالحبال الحديدية على علو شاهق كأرجوحة في السماء**».[3]

أما عن حضور قسنطينة في رواية "**فوضى الحواس**" فقد تجلى في سرد الأحداث حيث كانت المدينة مسرحا وفضاءً للشخصيات وتطور الأحداث. فقد جرت أحداث الرواية

---

[1] الرواية، ص02.

[2] أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشرات أحلام مستغانمي، بيروت، لبنان، ط2، 2003، ص 16.

[3] الرواية، ص 54.

في مدينة قسنطينة، أيام العشرية السوداء، انتقلت فيها بطلة الرواية وهي كاتبة لن تفصح عن اسمها، بين أرجاء المدينة وشوارعها، باحثة عن بطل روايتها الذي أحبته.

وقد تجلت لنا بعض معالم المدينة من خلال بعض مقاطع الرواية، منها زيارة البطلة لأحد جسور المدينة، تقول: «**افتح السيارة من الجانب المطل على الجسر، اقرب من سوره الحديدي، فتفاجئني بقسنطينة كما لم أرها يوما من جسر هوة من الأودية الصخرية المخيفة، موغلة في العمق، تزيدها ساعة الغروب وحشة**»[1]

منظر لم يرق للبطلة التي تبرز نظرتها الناقمة على المدينة في كثير من مقاطع الرواية، منها قولها: «**مدينة لا تعترف بالحب، إلا في أغاني الفرقاني، لا تغادر بيتها إلا لتذهب إلى المسجد أو إلى مقهى، لا تفتح النافذة إلا لتطل على مئذنة**»[2].

ج- قسنطينة في أدب الرحلات:

- **رحلة الورثيلاني:**

هو الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني نسبة إلى مسقط رأسه قرية بني ورثيلان، كان مولد الشيخ الورثيلاني عام 1125هـ- 1713م، تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه ببني ورثيلان، وعندما شبّ التحق ببعض الزوايا ومعاهد العلم بناحية القرقور، وكذا جهات أخرى من جرجرة، ازداد اطلاعه على ثقافة عصره بعد أن عقد الصلات مع بعض علماء الشرق أثناء تردده إلى البقاع المقدسة ثلاث مرات بغرض أداء فريضة الحج، فقد كانت حجته الأولى عام 1159هـ وهو ابن الثامنة عشر من عمره وكان ذلك بصحبة والده، والثانية عندما بلغ الواحد والأربعين من العمر وذلك سنة 1166هـ أما الثالثة فكانت سنة 1181هـ واستمرت لثلاثة سنوات وبعد عودته من الحج عكف على العبادة وانقطع إلى

[1] أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، تم التحميل من مكتبة نبع الوفاء للكتب المجانية، ص 60.
[2] الرواية، ص 192.

التدريس والوعظ والارشاد بمسجد عائلته ببني ورثيلان إلى أن وافته المنية سنة 1193هـ-1779م، وقد اشتهر برحلته "**تحفة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، سجل فيها رحلته داخل الجزائر وخارجها.[1]

حلّ الرحالة بقسنطينة سنة 1179هـ- 1765م بعد أيام من رحيله عن مدينة كاف التونسية، حيث استقر بالمدينة، قدم وصفا شاملا قدم فيه وصفا شاملا بالمدينة، زأبدى رأيه في أمور شتى من حياة أهل المدينة وأهلها.

يقول الورثيلاني عن مدينة قسنطينة «**هي مدينة في وطننا وقاعدة من قواعد بلادنا وإن لم يكن فيها السلطان ففيها نائبه الباي**»[2]، من خلال هذا المقطع يتضح لنا أن المدينة في زمن الرحالة كانت تحت الحكم العثماني، حيث أن حاكمها "السلطان" ونائبه "الباي".

ويواصل وصف المدينة فيقول: «**هي مدينة قوية ليست كبيرة جدا ولا صغيرة أيا وعليها سور كبير، وفيها أبواب ثلاثة باب الادي وباب الجابية وباب القنطرة، وفيها أيضا بويب صغير يخرج منه الآدمي**"[3] ، **فمدينة قسنطينة معروفة منذ القدم بسورها الحصين الذي يحيط بالمدينة، وكذا أبوابها الثلاثة المشهورة "ثم إن المدينة مبنية على كهف وجرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك بل يموت قطعا**»[4].

ويقدم الرحالة أيضا وصفا لمظاهر متعددة من النشاط الاقتصادي في المدينة فيذكر: «**وفيها أسواق كثيرة، ودكاكين طبية، تنفذ منها للجزائر أموال عظيمة من المغرم ومددها قوي وظلمها كثير وسعرها رخيص، واسعة الأرزاق كثيرة الارتفاق ممدودة الإنفاق، كثير**

---

[1] عبد الحفيظ بورايو، مدينة قسنطينة في أدب الرحلات، مرجع سابق، ص 116.

[2] الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص 791.

[3] رحلة الورثيلاني، ص 791.

[4] رحلة الورثيلاني، ص 791.

فيها اللحم والسمن والقمح والتين، ما أحسنها من زرع ودرع وضرع، تأتيها القوافل من كل النواحي، قليلة الفواكه، كثيرة المزارع»[1] ،وهذا يدل على ازدهار الاقتصاد والتجارة في المدينة أثناء الحكم التركي للجزائر، فقد كانت تدر أموال طائلة للخزينة.

ويقول أيضا:«**هذه المدينة غير خالة من العلماء ولا من الفضلاء والصلحاء...**».[2] فمدينة قسنطينة معروفة منذ القديم بأنها بلد العلم والعلماء.

ويقول الرحالة أنه اجتمع ببعض رجالات المدينة الصلحاء:«**أقول وبالله التوفيق السالمين إن شاء الله بسببهم من المقت منهم، العالم الفاضل والصالح الكامل والورع العدل شيخنا وعدتنا الولي الصالح والبدر الواضح سيدي يحي اليحلاوي ومثله في الفضل والعلم والأدب النحوي الفقيه سيدي أحمد الزين (...)، وسيدي فرج، وسيدي علي الزموري وسيدي خليفة الشارف، وسيدي أحمد العلمي، وسيدي عبد الله التومي...**"[3]. وغيرهم من العلماء والصلحاء الذين عرفت بهم المدينة وعرفوا بعلمهم وفقههم وصلاح رأيهم.

- **رحلة ابن بطوطة:**

نجد أن مدينة قسنطينة قد مر بها الرحالة العربي المشهور "**ابن بطوطة**"، وذكر أن حل بها بعد خروجه من مدينة "بجاية" وقبل وصوله إلى مدينة "بونة"، فقال:« **وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة، فنزلنا خارجها، وأصابنا مطر جود، فاضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلا إلى دور هنالك، فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة، وهو من الشرفاء الفضلاء، يسمى بأبي الحسنة فنظر إلى ثيابي وقد لونها المطر فأمر بغسلها في داره**

[1] رحلة الورثيلاني، ص 791.

[2] رحلة الورثيلاني، ص 792.

[3] رحلة الورثيلاني، ص 798.

وكان الإحرام منها خلقا فبحث مكانه إحراما بعلبكيا، وصرفي في أحد طرفيه دينارين من الذهب، فكان ذلك أول ما فتح به علي في وجهي».[1]

في هذا الوصف للرحالة يتجلى لنا صفة حميدة اتّصف بها أهل مدينة قسنطينة ولا تزال لصيقة بهم إلى اليوم وهي الجود والكرم وحسن استقبال الضيوف.

خلاصة:

من خلال ماتقدم نخلص أن لموضوع المدينة في الأدب العربي (القديم والحديث) مكانة مرموقة، فقد لقي هذا الموضوع عناية خاصة من قبل الأدباء العرب سواء كانوا شعراء أم روائيين.

ولم يكن الأدباء الجزائريون بمنأى عن هذا الموضوع، حيث شغلت المدينة بالهم، خاصة في ظل الظروف التي عاشتها الجزائر، فقد تجلت المدينة الجزائرية في أشعارهم كما في رواياتهم، ولعل أهم وأبرز المدن التي كانت لها حصة الأسد في الطرح "مدينة قسنطينة"، هذه المدينة العريقة التي تطرقنا إلى أهم المحطات في تاريخها، وكذا موقعها الجغرافي وأصل تسميتها، فهذه البقعة من الوطن العربي سحرت زوارها، وسكنت روح ساكنيها، وذلك لما تخفيه من خبايا وأسرار بين صخورها وجسورها المعلقة، فاتخذ الأدباء منها مسرحا وقضاءً لنمو شخصياتهم وتطور أحداثهم، كما تغنى بها الشعراء في قصائدهم، ووصفها الرحالة في رحلاتهم.

[1] رحلة ابن بطوطة، مرجع سابق، ص 116.

الفصل الثاني: صورة مدينة قسنطينة في رواية "جسر للبوح وآخر للحنين"

1/الصورة التبوغرافية لمدينة قسنطينة

2/الصورة البشرية لمدينة قسنطينة

3/أثر صور مدينة قسنطينة في الرواية

1-الصورة التوبغرافية لمدينة قسنطينة:

تزخر مدينة قسنطينة بمناظر خلابة وتبوغرافيا ساحرة، قلما نجدها في باقي المدن الجزائرية إن لم نقل العالمية، خاصة موقعها العجيب، باعتبارها مدينة مبنية على صخرة من الكلس، ومعالم طبيعية أخرى تعكس إبداع الخالق عز وجل في كونه.

وقد تجلت هذه الصورة الساحرة للمدينة في رواية "**جسر للبوح وآخر للحنين**" للأديبة الجزائرية "**زهور ونيسي**"، ولعل العنوان نفسه يجلي لنا أهم ما تتميز به مدينة قسنطينة وهي الجسور السبعة المعلقة، والتي كنيت بها المدينة "مدينة الجسور المعلقة". بالإضافة إلى الشوارع والأحياء والأبواب والرحبات والمساجد والجبال، وغيرها من المعالم الطبيعية والحضارية والأبنية العمرانية، التي سنتطرق إلى أهمها حضورا في الرواية وأبرزها تأثيرا في أحداثها.

أ- الأحياء:

يعتبر الحي جزءًا من تكوين المدينة، ومركزا هاما من مراكز الحياة فيها، إذ يمثل مسرحا للحياة اليومية لمختلف شرائح المجتمع، فهو«**منطقة جغرافية تتواجد ضمن مدينة كبيرة أو بلدة، وتختلف الأحياء في معيارها الراقي أو المتدني نبعا لسكانها أو قيمة أرضها أو جهتها**».[1]

ومنه يمكن تقسيم الحي إلى: حي خارجي أو حضاري، وحي شعبي، وذلك بالاعتماد على مجموعة من المعايير منها: كثافة السكان بالحي، مكان تواجده وموقعه خاصة بالنسبة للمرافق العمومية الضرورية كالمستشفيات والمدارس...

[1] الحي، ويكيبيديا الموسوعة الحرة. http://ar.wikipedia.org

ولعل مدننا العربية تعرف أكثر بأحيائها الشعبية مقارنة بالأحياء الحضارية، حيث يتميز الحي الشعبي ببساطة العيش وسهولة الحياة (سواء في المأكل أو الملبس)، وكذا الأبنية المتراصة المبنية على الطريقة التقليدية، وتتميز هذه الأحياء أيضا بالمحافظة على الموروث الشعبي الذي يميز كل منطقة.

ولا تختلف الأحياء الشعبية في مدينة قسنطينة عن هذه المواصفات، إذ وردت في الرواية مجموعة من الأحياء الشعبية التي كانت مسرحا للأحداث، والتي مثلت الذاكرة الشعبية للمجتمع القسنطيني، ومن بين هذه الأحياء نذكر:

- **حي سيدي جليس:**

ويعتبر من أعرق الأحياء الشعبية في مدينة قسنطينة، حي مختص في صناعة الحلويات التقليدية، كالجوزية، والكوكاوية، والنوقة وحلوة الحلقوم... إلخ.

يحتل هذا الحي مكانة مرموقة في قلب البطل "**كمال العطار**"، حيث يمثل له أجمل ذكرى في حياته، فهو الحي الذي ولد فيه وكبر وترعرع بين أحضانه ووسط عائلته وأصدقائه وجيرانه، فبعد عودته إلى مدينته بعد غياب دام أربعين سنة ها هو اليوم يقرر زيارة حيه القديم حيث «**دخل من "رحبة الصوف" ثم إلى "زنقة حلموشة" ليصل إلى ساحة "سيدي جليس" حيه القديم، مكان مولده مربع طفولته ومرتع صباه**».[1]

يحوي هذا الحي ساحة كبيرة ويوجد وسطها عين تسمى"**عين سيدي جليس**"، فهذه الأخيرة هي الوحيدة التي بقيت في الساحة بعد طول السنين التي فارق فيها "**كمال عطار**" مدينته، فبعد عودته لم يجد سوى الركام والنفايات في الحي فكل بيوته انهارت وتهدمت ولم

[1] زهور ونيسي، جسر للبوح وآخر للحنين، منشورات زرياب، (دط)، (دت)، ص 219.

يبق منه سوى هذه العين «**عين ماء بالساحة هي الوحيدة التي مازالت تسيل بمياه لا يدري من أين تأتي وما هو منبعها**».[1]

ولم يفوت "**كمال**" فرصة الشرب من العين ليتذكر بذلك أيام حياته بين جدران هي الحي «**قطع كمال الساحة وتاقت نفسه أن يشرب من العين، وهي تسيل دون توقف**».[2]

فتلك القطرات من الماء التي بللت فمه «**كان لها طعم خاص في نفسه**»[3]، فهذه المياه كانت في يوم ما منبعا ارتوى منه أهله وجيرانه وأصدقاؤه الذين فارقوه وبقي وحيدا.

- **حي السويقة:**

وهو حي صغير كانت تتواجد به سوق صغيرة سميت "**السويقة**"، ومنه أخذ الحي اسمه، يتميز هذا الحي بشوارع ضيقة، ونسيج عمراني موحد البنيان «**وحي السويقة عبارة عن تجمع سكاني وتقاطع شوارع ضيقة تتواجد به محلات تقليدية، يباع فيها كل ما لذ وطاب من مأكولات شعبية وألبسة تقليدية، فالسويقة هي القلب النابض في قسنطينة**».[4]

وللوصول إلى هذا الحي يجب على المار أن يسلك سلالم مبنية بالحجر الأزرق «**سلالم المدينة المبنية بالحجر الأزرق المستقيمة حينا، والمنحنية حينا آخر، توصله إلى أسفل السويقة**»[5]، وحي السويقة من الأحياء التي لها مكانة من نوع خاص في سجل ذكريات "**كمال العطار**" فهي تمثل روح مدينة قسنطينة كما قال: «**دروب السويقة هي روح**

---

[1] الرواية، ص 220.

[2] الرواية، ص. ن.

[3] الرواية، ص 221.

[4] ز. فتيحة، ، بين أزقتها القديمة وشوارعها الضيقة، السويقة ذاكرة قسنطينة التي لا تنسى، مقال نشر في جريدة البلاد يوم 2010/11/6. موقع جزايرس.www.djazairess.com تاريخ الاطلاع: 12-05-2018.

[5] الرواية، ص 48.

المدينة، ومدينة بلا روح مدينة ميتة، مدينة بلا وجه ولا قلب ولا هوية، مدينة بلا اسم سوى في حالة الهروب من الأمس واليوم والغد إلى الفراغ اللانهائي»[1]، فقد جعل "كمال" من حي "السويقة" قلب المدينة ككل، فهي (السويقة) التي تمثل الروح والقلب والوجه والهوية والاسم، فكأنه اختزل "قسنطينة" في السويقة. «**هذه الدروب بيني وبينها حنين من نوع خاص، يدغدغ الشوق المسافر في أحشائها كل كوامن أحشائي...، بيوتها المتعانقة البالية تعلم الحب وتزرع الدفء، وتتكتم على الأسرار الجميلة وغير الجميلة، إنها أبدا حية في قلبي وعقلي لأن الحب وحده هو الذي يستطيع أن يهزم الموت»**[2].

فحي السويقة حي يختزل تاريخ قسنطينة، كما يختزل أيضا ماضي "**كمال العطار**" وأجمل ذكرياته في مدينته الغالية قسنطينة.

- **حي ساحة لابريش:**

هي الساحة التي كانت ملتقى العشاق "**كمال العطار**" وحبيبته اليهودية "**راشيل**"، تضم هذه الساحة مجموعة من الحدائق والمساحات الخضراء منها حديقة الأغنياء المخصصة للأغنياء فقط، وأخرى للفقراء.

تسمية الساحة "**La brèche**" مستمدة من اللغة الفرنسية وتعني الثغرة، فالساحة معروفة تاريخيا على أنها كانت أول منفذ تسلل منه الاستعمار الفرنسي إلى قسنطينة سنة 1937م «**ساحة لابريش عند المعمرين، هي ناديهم في الليل وفخرهم في النهار حيث تبدو الساحة وقد توسطت أجمل البنايات المنجزة بعد احتلال المدينة في بداية القرن التاسع**

[1] الرواية، ص 134.

[2] الرواية، ص 135.

عشر، دار الأوبرا، ودار العدالة، ودار البلدية، ودار الحاكم العام، وكذلك الحديقتان، حديقة الأغنياء وهي ممنوعة على الأهالي والكلاب، والثانية للأهالي الفقراء والكلاب...».[1]

مثلت هذه الساحة مكان الالتقاء بالحبيبة اليهودية، حيث كان "**كمال العطار**" يتبادل معها أطراف الحديث ويقضي معها وقتا ممتعا.

- **حارة الرصيف:**

يعتبر حي الرصيف من الأحياء التي كانت ولازالت محافظة على الإرث الحضاري القسنطيني، ويتميز بكونه يجمع بين حي سكني، ومنطقة تشهد نشاطا تجاريا كبيرا، حيث يحتوي على العديد من المحلات والطاولات التجارية.

وقد ورد هذا الحي في الرواية من خلال صناعة النسيج الذي كانت تبدعه أم كمال وجارتها وتبعثه إلى "**الحاج بلعمري**" ؛«**تقوم هي وجاراتها بتسليم ذلك الإبداع إلى جارهم الشيخ "عمّي الطاهر" ليأخذه بدوره إلى "الحاج بلعمري" صاحب أكبر محل للنسيج بحارة الرصيف**».[2] فهذا الحي ذو طابع تجاري معروف في مدينة قسنطينة.

ب- المعالم الدينية:

عرفت مدينة قسنطينة منذ القديم بطابعها الثقافي والديني، خاصة بعد دخول الإسلام إليها، حيث شهدت بناء مجموعة كبيرة من المساجد والجوامع التي عكست تعلق سكان المدينة بدينهم.

والجامع هو مسجد خاص تؤدى فيه صلاة الجمعة بالإضافة إلى الصلوات الخمس الأخرى، وسمي كذلك لأنه يجمع الناس لعبادة الله تعالى وأداء الصلوات.

---

[1] الرواية، ص 109.

[2] الرواية، ص 92

ومن جوامع مدينة قسنطينة التي ذكرت في الرواية:

- **جامع سيدي عبد المومن:**

وهو أحد مساجد المدينة، وموقعه بحي السويقة، تقام فيه الصلوات الخمس، ويقع فيه تعليم القرآن للأطفال، وكان يقوم بالتدريس فيه جماعة من العلماء، منهم الشيخ عبد القادر المجاوي.

ذكر المسجد في الرواية من خلال رحلة عودة البطل "**كمال العطار**" إلى مدينته، حيث «**تذكر جامع "سيدي عبد المومن" قطب أعلام المدينة، ونهايته المأساوية على يد الحاكم الفرنسي، هذا الجمع الصغير البالي، لقد كان في يوم ما، مركزا للعقل السياسي بالنسبة للحكام الأتراك بالمدينة كل الأوامر والقرارات تصدر عن أئمته وليس للحاكم العثماني سوى التنفيذ**»[1].

فهذا الجامع ينسب إلى الأتراك، وهو من مخلفاتهم الدينية التي تدل على حفاظهم على الإسلام ونصرته.

- **جامع سيدي الأخضر:**

يعتبر أيضا من أهم مساجد المدينة، بناه الباي "**حسن بن حسين**" الملقب "**أبو حنك**" الذي تولى حكم قسنطينة من عام (1149هـ إلى 1168هـ)، وكان بناء المسجد عام 1156هـ، كان يقوم بالتدريس فيه نحو ثمانية من المدرسين منهم العلامة بن باديس.[2]

[1] الرواية، ص 59.

[2] ز. الزبير، مساجد قسنطينة ،مقال نشر في جريدة المساء، يوم 29-05-2009، موقع جزايرس.www.djazairess.com تاريخ الاطلاع: 15-05-2018.

لعب هذا المسجد دورا في تنوير العقول ومحاربة الشعوذة والخرافات، يقول "**كمال العطار**": «**كان والدي وجيرانه من الرجال لا يؤمنون بهذه الخرافات التي كثيرا ما تقع النساء فريسة سهلة لها، وكأنهم كانوا الأقدر على الفهم من النساء (...) بسبب الدروس التي كانوا يتلقونها في المساجد ودور العلم، رغم أن النساء أيضا ومنهم أمي كن يتلقين الدروس كل مساء في الجامع الأخضر على يد الإمام ابن باديس**».[1]

ج- البناءات والعمران:

تتميز مدينة قسنطينة بمعالم عمرانية وبناءات فريدة من نوعها، تعكس مدى القيمة التراثية للمدينة، ومن بين هذه المعالم:

- **الأبواب:**

يعتبر سور مدينة قسنطينة من أهم المعالم التي كان لها أثر بالغ في تاريخ المدينة حيث حصنها من هجمات الأعداء والطغاة على مر العصور، وزود هذا السور بسبعة أبواب هي: باب الحنانشة، باب الرواح، باب القنطرة، باب الجابية، باب الجديد، باب الواد، وباب ميلة.

ومن الأبواب التي ذكرت في الرواية نجد:

- **باب القنطرة:** يصل المدينة بالضفة الجنوبية لوادي الرمال، تتواجد به صخرة "فيروزة" وقف به "**كمال العطار**" وهو يتأمل مدينته الجميلة التي يقطر قلبه دما على ما آلت إليه «**يحمر الشفق ليصبح جمرة كالتي تحرق قلبه على مدينته وكمال وسط جسر باب القنطرة معلقا على هاوية بين شطري صخرة فيروزة ليقف على جسر ويشاهد جسورا ما**

[1] الرواية، ص 119.

هذه المدينة العجيبة التي لا ترضى بالعيش إلا في الفضاء هائمة محلقة"[1]، وهو المنطقة التي تتواجد بها مقبرة اليهود.

- **باب الجابية:** ينفتح على الطريق الممتد إلى سيدي راشد وهو «**الباب الذي كان محرما عليه وعلى رفاقه أبدا، من بين أبواب المدينة السبعة، حتى ذكره كان محرما (...) ليعرفوا أنه درب للدعارة المنظمة المقننة...**».[2]

- **الجسور:**

تمثل الجسور سبل المرور من ضفة إلى أخرى، وتحمل دلالة الاتصال والتواصل فالجسور يدل على الاستمرارية والبقاء: كما يمثل أيضا «**قوة من قوى المستقبل، ربط لعلاقة واستمرار لحياة، وتنمية التواصل، تواصل للرؤية والفكر والعلم...**».[3]

والجسر هو «**طريق موصل بين نقطتين وأرضين وفكرين وزمنين، الحياة بدون جسور قطيعة وبتر وتشوه...**»[4]، فجسور قسنطينة هي الروابط التي تربط المدينة للتمكن من التنقل بين شطري المدينة التي يقسمها وادي الرمال إلى شطرين.

والجسور المعلقة هي حال "**كمال العطار**" المعلق هو الآخر بين ماضيه وحاضره ماضيه الحافل، وحاضره الأليم، «**إنه اليوم مثل هذه المدينة وجسورها معلق بين زمنين ممزق بين مرحلتين، ممسك بجمر اللحظة الحارقة، وهي تثري ذاته بأوجاع لا قبل بها**».[5]

والجسور في الرواية مثلت الطرق التي مر بها "**كمال العطار**" في رحلته عبر أحياء وشوارع المدينة، من بيته المتواضع إلى باقي المناطق التي زارها

---

[1] الرواية، ص 228.

[2] الرواية، ص 49.

[3] الرواية، ص 228.

[4] الرواية، ص 229.

[5] الرواية، ص 228.

- **رحبة الصوف:**

من بين الرحبات التي تعرف بها المدينة، وهي سوق تباع فيها مختلف أنواع الخضر والفواكه، ومختلف الأغراض المنزلية والألبسة وكذا محلات بيع الذهب «**كان كمال قد قابلها (راشيل) يوما في أحد الشوارع أمام أحد دكاكين صناعة الذهب الكثيرين في رحبة الصوف بالمدينة**».[1]

- **المقابر:**

المقبرة أو "الجبانة" هي مكان مخصص لدفن الأموات سواء يشكل فردي أو جماعي يوجد في مدينة قسنطينة مقابر خاصة بالمسلمين وأخرى خاصة باليهود، تقع هذه الأخيرة في "باب القنطرة"، وهي مقبرة خصصت لدفن موتى اليهود وفق طقوس ديانتهم، وقد حظيت هذه المقبرة بالاحترام من قبل السكان، حيث ينام اليهود هادئين في بلاد الإسلام.

وقد ذكرت هذه المقبرة في الرواية، حيث مر عليها البطل "**كمال العطار**" وهو في طريقه إلى المقبرة التي دفن بها أهله. «**ولكنه قبل أن يصل إلى المقبرة صادفته مقبرة أخرى، مقبرة اليهود بسورها العالي في "باب القنطرة"، وقد طلي باللون الأصفر، وموتى اليهود في سباتهم بين الورد والزهر معززين مكرمين في أرض تحترم العقائد والديانات**».[2]

فمدينة قسنطينة من أكبر المدن التي يقطنها اليهود، وتتوفر على عدد كبير من معابدهم ومدارسهم التي تدرس لغتهم العبرية.

[1] الرواية، ص 99.

[2] الرواية، ص 153.

أما المقابر الخاصة بسكان قسنطينة فتقع في مناطق مختلفة من المدينة، خاصة بالمسلمين، بدفن فيها الأموات على الطريقة الإسلامية المعروفة، وأهم ما يميز هذه المقابر نبات "العطرشة" الذي يغرس فوق القبور.

في إحدى هذه المقابر دفنت عائلة "**كمال العطار**"، أمه "**عتيقة**" وزوجته "**نفيسة**" ووالده، وبعضا من معارفه وجيرانه وأصدقائه، وأثناء دخوله المقبرة التقى بحارسها، فالمقبرة لها باب ومفتاح وحارس وذلك لحماية القبور من الحفر والنبش سواء من طرف الحيوانات أو من طرف البشر الذين يسيئون للقبور لأغراض السحر والشعوذة.

جرى حوار بين "**كمال العطار**" وحارس المقبرة، وأخبره الحارس أن المقبرة لا يفتحها إلا في الأعياد والمناسبات «**نعم أغلقها، وإلا ما فائدة المفتاح... إنني لا أفتحها إلا في المواسم والأعياد، للترحم وقراءة فاتحة الكتاب، إن كان ذلك لا يزال مجديا لقد انتهى عصر الاستشهاد، ولا شهيد بعدهم، الاستشهاد أصبح ذا دلالات أخرى غير ما كنا نعرف، فلماذا تبقى مفتوحة طول الوقت**»[1]، فزيارة القبور في المدينة لا يكون إلا في المناسبات.

زيارة "**كمال**" للمقبرة كان بسبب شوقه لأقربائه وخاصة والدته التي أحبها كما لم يحب ولد أمه، فقد كانت بالنسبة إليه الأم والأخت والصديقة، كيف لا وهو وحيدها، «**فعندما يزور قبرها ويشم زهرة نبتة "العطرشة" وهي تزينه وتظلل عليه يجد نفسه، بل إنه يجد حياته كلها، بدءً من طفولته الوديعة الهادئة**».[2]

كما أنه حاول الهروب من واقعه وحاضره مفضلا العودة إلى الماضي، أين كان يحيا في طمأنينة وراحة بال مع من هم الآن في هذه المقبرة فهي «**قطعة الأرض الوحيدة التي**

[1] الرواية، ص 107.

[2] الرواية، ص 175.

تحوي في أحشائها أسرته وأحبابه، في الحقيقة هذا هو بيته الحقيقي، أين تكون العائلة يكون بيتك».[1]

زيارة المقابر في المدينة مناسباتية، ويكتفي الزوار بقراءة فاتحة الكتاب على قبور موتاهم، لكن "**كمال**" أراد أن يقلد الآخرين فقد «**كان يحمل باقة من أزهار النرجس ليضع على كل قبر يزوره زهرة أو زهرتين**»[2].

وهو الأمر الذي تعجب منه زوار المقبرة فهم تعودوا أن يروا مثل هذا الفعل فقط في مقابر المسيحيين لكنّهم «**لا يدركون أنهم يحرمون موتاهم حتى من عبق الزهور العطرة**»[3].

فالمقبرة بالنسبة "**لكمال**" هي السبيل الوحيد للوفاء لأهله خاصة والدته.

د- المناظر الطبيعية:

تزخر مدينة قسنطينة بمناظر طبيعية خلابة، ممثلة في تضاريسها التي تعكس جمال هذه المدينة وسحره، خاصة الصخرة الكلسية، التي تعتبر قاعدة المدينة، وكذا وديانها وتلالها هضابها وسهولها التي شكلت لوحة كونية بديعة ممثلة في مدينة قسنطينة.

- **الجبال:**

شكلت السلسلة الجبلية الموجودة في المدينة حاجزا وعرا أما كل الغزاة الذين حاولوا احتلال المدينة، منها جبل المنصورة، «**فكل الحملات التي شنت لامتلاكها، حتى تلك التي جاءت باسم الأخوة والدين، "وحمودة باشا" فارس جارتها تونس، يكاد يهلك وهو يحاول أن**

[1] الرواية، ص 183.
[2] الرواية، ص 186.
[3] الرواية، ص 187.

يحتل جبل منصورتها، ليرجع مخذولا لأنه نسي أنها المنصورة منذ "عقبة بن نافع" إلى "كلوزيل"...».[1]

- **جبل الوحش:**

يعتبر أعلى نقطة في مدينة قسنطينة، يتميز بطبيعة خلابة لكثرة المساحات الخضراء فيه، وهو من المناطق التي يزورها سكان قسنطينة كثيرا خاصة في فصل الربيع أين تقام طقوس الاحتفال بقدوم هذا الفصل، كما كان يفعل "**كمال العطار**" وعائلته، وكان هذا الجبل أيضا من المناطق القليلة التي قضى فيها "**كمال العطار**" بعض اللحظات مع زوجته "**نفيسة**" التي «**لا تعرف أدغال الحب سوى اللحظات القصيرة التي تقضيها معه في حديقة الأغنياء أو بين أدغال "جبل الوحش" وبحيراته الخضراء اللون من كثرة ما يحيط بها من اخضرار**»[2].

- **واد الرمال:**

يقسم المدينة إلى قسمين وهو من الوديان المهمة في الجزائر، يتميز بغزارة مياهه وتعلوه الجسور على ارتفاعات تفوق 200م، زاره "**كمال العطار**" في رحلة عودته إلى مدينته: «**ويصل إلى أسفل، بينه وبين "واد الرمال" الهادر مسافة قصيرة، يسمع للوادي هدير صاخب، إنه النهر لا يبالي، لأنه لا يعلم شيئا، ولا يتقيد بشيء، وليس ملزما بشيء**».[3]

---

[1] الرواية، ص 14.

[2] الرواية، ص 86.

[3] الرواية، ص 56.

2-الصورة البشرية لمدينة قسنطينة:

أ- العادات والتقاليد:

لمدينة قسنطينة الكثير من العادات والتقاليد التي تميزها عن باقي المدن الجزائرية الأخرى منها ما اندثر، ومنها ما يزال يصارع الزمن والتطور والتغير.

وقد وردت في الرواية بعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع القسنطيني وهي كالآتي:

- **عادة الختان:**

الختان أو الطّهارة، هي عادة يقوم بها المسلمون، حيث تعتبر من سنن الفطرة التي وردت في الأحاديث النبوية، وقد أثبت الطب الحديث أن للختان فوائد كثيرة منها أنه يمنع حدوث الالتهابات.

وقد وردت هذه العادة في الرواية، حيث يقوم بها المجتمع القسنطيني على غرار باقي المجتمعات الإسلامية، ولها عادات وطقوس، منها إحياء حفل كبير شبيه إلى حد ما حفلات الأعراس، وعريس الختان في الرواية هو البطل "**كمال العطار**"، حيث أقام له والداه حفلا مميزا بحضور فرقة "**الشيخ الريمون**"، «**حضور فرقة "الشيخ الريمون" تكلف غالبا، ولكن لا مناص من التعبير عن الفرح الكبير بختان طفل وحيد والديه**»[1].

ومن بين الطقوس في هذه العادة عن المجتمع القسنطيني أن يرتدي الطفل لباسا خاصا ليلة الحنة، كالبرنوس، أو القفطان. «**كان يلبس يومها قفطانا أحمر، مطرزا بخيوط**

[1] الرواية، ص 52.

من الذهب، وعلى رأسه طربوش من نفس اللون والتطريز، وفي قدميه نعل من نفس اللون والتطريز».[1]

وتقام حفلة الحنة من خلال دعوة الأهل والجيران، وإقامة وليمة عشاء تتكون من أشهى الأطباق على اختلاف أنواعها، ثم تبدأ مراسيم الحنة بإحضار صينية نحاسية كبيرة يوضع عليها الشموع والحلويات وطبق الحنة، هذه الخيرة تعجن بماء الزهر أو الورد ثم توضع على كفي الطفل (عريس الختان)، تحت وقع الزغاريد والأغاني التراثية الخاصة بهذه المناسبة.

وبعد ليلة الحنة، وفي صباح اليوم التالي يؤخذ الطفل إلى الطبيب الذي يقوم بختانه ويسمى "الطهّار"، وعند الانتهاء يسلم القطعة التي أزالها إلى أحد أقارب الطفل ليعود بها إلى المنزل، وتذهب بها النساء إلى خارج المنزل ودفنها، وسط جو بهيج مليء بالزغاريد والأغاني التراثية الخاصة "بالطهارة"، «**وعندما نزعوا تلك الجلدة الزائدة منه ذهبوا بها في إناء واسع من النحاس يحوي ترابا، والبنات يغنين:**

" **طهّر يا المعلم طهّر لا تخاف لا توجع وليدي من تحت اللحاف**"».[2]

وهذه الطقوس في معظمها تشترك فيها جل العائلات الجزائرية.

- **عادة الصوم:**

يعتبر الصوم ركنا من أركان الإسلام الخمسة، والصيام هو الامتناع عن جميع المفطرات من طلوع الشمس إلى غروبها، حكمه واجب على كل من تتوفر فيهم شروط

[1] الرواية، ص. 52.

[2] الرواية، ص 52.

الصيام كالبلوغ والعقل، ويكون الصوم في شهر رمضان كما يكون في باقي أيام السنة كيومي الإثنين والخميس، ويوم وقوف عرفة...

ومدينة قسنطينة من المدن التي تقدس هذا الركن، كما تقدس أيضا شهر رمضان الكريم الذي تفرح بقدومه جميع العائلات القسنطينية، فتقوم بالتجهيز له من خلال تحضير أشهى الأطباق والمأكولات التي تعرف بها المدينة مثل طبق "شباح الصفرة" و"الشخشوخة" وأيضا "الرفيس القسنطيني".

إنّ صيام الأطفال عند العائلات القسنطينية له طعم خاص، حيث يفرحون بهم ويكرمونهم بتحضير أطباقهم المفضلة، وإعطائهم النقود لشراء ما يشتهون، وهذه اللحظات الجميلة كانت أجمل لحظات "**كمال العطار**" عند ما صام لأول مرة حيث «**قررت أمه يومها أن ينهض ليتسحر، فأبقت نافذة غرفته مفتوحة حتى يسمع "بوطبلة" المسحراتي وهو ينادي في دروب حيهم بطبلة الناس للسحور، وبصته الشجي مناديا على الأطفال كل واحد باسمه ووصفه، لتخرج أمه، وهي تحمل ألذ الأطباق، وأربعة "دورو" إكراما لصوم ابنها لأول مرة**».[1]

تقدم الجارات والأمهات هدايا للأطفال الصائمين أول مرة، وتختلف هدية الأولاد عن هدية البنات، فهدية الأولاد أكثرها من المأكولات، بينما تحظى البنات بهدية ذهبية، فصيام الطفل عند العائلة القسنطينية حدث كبير.

- **عادة شرب القهوة بماء الزهر:**

القهوة من المشروبات التي تحظى بشعبية كبيرة في العالم، و ذلك لذوقها المتميز وفوائدها في تنشيط الجسم ، يعد هذا النوع من المشروبات من بذور البن المحمصة .

[1] الرواية، ص 232، 233.

يعتبر مشروب القهوة من أهم المشروبات التي يكرم بها الضيف في مدينة قسنطينة وفي غيرها من المدن ، حيث «**كانت نساء عائلته ونساء المدينة ككل يشربن القهوة يفضلنها ويقسمنا بها : وحق هذه الشاذلية**»[1]؛ فالقهوة في المدينة ينسبونها إلى الإمام "**الحسن الشاذلي**"الذي كان يقدمها لتلاميذه حتى يتمكنوا من السهر بالزاوية لطلب العلم.«**لحسن الشاذلي الذي كان يناول طلبته القهوة بنًّا، حتى يتحملوا السهر للحفظ، حفظ علوم الدين والدنيا**»[2].

ولقهوة "العصر" في قسنطينة نكهة خاصة، فهي من العادات الأصيلة الخاصة بعائلاتها، ومن الأمور الحتمية التي لابد من فعلها، حيث تجتمع العائلة والجيران عادة بوسط المنزل ويستديرون بصينية نحاسية تحمل فناجين القهوة وبعض الحلويات التقليدية، ولعل أهم ما يميز القهوة القسنطينية قطرات ماء الزهر أو ماء الورد التي تضاف إلى فناجين القهوة لتعطيرها وإعطائها مذاقا خاصا. وهو ما كانت تقوم به والدة "**كمال العطار**" وجيرانها اللواتي تذكرهم في رحلة عودته إلى المدينة «**وتذكر نساء عائلته والجيران والأحباب جميعا، بدءًا من والدته التي تشرب قهوتها عصرا، ألا وهي مرشوشة بماء الزهر، عملت على تقطيره وفصل عطره عن مائه، في مواسم الزهر والورد...**»[3]، وعادة تقطير الزهر والورد هي الأخرى عادة متأصلة في المرأة القسنطينية، ويكون موعد التقطير في فصل الربيع مرفوقا بإقامة الولائم والأفراح ويستعمل ماء الورد أو الزهر في تحضير بعض الحلويات القسنطينية.

- **عادة الربيع:**

يعتبر فصل الربيع من أجمل الفصول، خاصة في مدينة قسنطينة، التي تستقبله بطبيعتها الساحرة وعاداتها الأصيلة، فبمجرد قدوم الربيع تبدأ العائلات القسنطينية بتحضير

[1] الرواية، ص 233.

[2] الرواية، ص 104، 105.

[3] الرواية، ص 104.

ما لذ وطاب من الأكلات والأطباق الخاصة بفصل الربيع كالبغرير (الغرايف)، الرفيس التونسي، البراج، الطّمينة...، ويخرجون بها إلى الطبيعة خاصة أعالي جبال المدينة مثل "جبل الوحش"، حيث يجتمع الأهل والجيران ويتبادلون أطراف الحديث وسط جو بهيج من الفرح واللهو واللعب، وموسيقى المالوف التي تملأ المكان.

هذا الجو البهيج الذي لم يفارق ذاكرة "**كمال العطار**"، حيث «**كان يخرج هو وأفراد عائلته والعائلات الأخرى، إلى أعالي جبال المدينة "جبل الوحش" بالخصوص ليستقبلوا بشائر الربيع على طريقتهم الخاصة، يتمتعون بالشمس الدافئة، والمروج الخضراء، وشرب اللبن، وأكل الحلوى "البراج" تلك الخبيزات المسمنة المعجونة بلباب التمر معجونا مع ماء الزهر أو الورد، ومسحوق القرنفل**»[1]، وغيرها من المأكولات التي تعرف بها المدينة والتي تحضّر خصّيصا لفصل الربيع.

«**وكان المتنزهون لا يكتفون بمتعة الجمال حولهم، بل يضيفون لها متعة الموسيقى وهي تملأ الأجواء ألحانا من طرف الفرق الموسيقية الكثيرة، أو عشاق الموسيقى من الشباب، هوايتهم الموسيقى المحلية، طابع "المالوف" الذي تنفرد بريادته المدينة وكل ما هو أصيل من أنواع الطرب الأندلسي**»[2].

فربيع مدينة قسنطينة ذو طابع خاص يعكس أصالة المدينة وتمسكها بعاداتها وتقاليدها التي تسعى إلى الحفاظ عليها من الاندثار والزوال بفعل الزمن.

- **عادة الجنائز:**

الجنازة هي مراسيم تقام لتشيع، وفاة شخص، وغسل الميت وتكفينه وتطييبه بالعطر وتختلف عادة الجنازة من منطقة إلى أخرى.

---

[1] الرواية، ص 261.

[2] الرواية، ص 262.

وتتميز الجنازة في مدينة قسنطينة بأنها تختلف باختلاف الميت، فجنازات «**الشباب تختلف عن جنازات الشيوخ، وجنازة المرأة تختلف عن جنازة الرجل، تختلف في الشكل والمضمون، حتى في النعش الذي يخصص للمرأة كان نعشا بقبة حتى لا يبرز أعضائها ومفاتنها**»[1].

والجنازة في الرواية كانت جنازة "**تفيسة**" زوجة "**كمال**" التي توفيت إثر عسر ولادتها «**تعسر الولادة ذات ليلة من ليالي الشتاء الطويلة (...) وتفشل الداية في تحمل مهمة تلقي الجنين، ويتأخر طبيب الأسرة في الوصول، وتتأخر رخصة الخروج من البيت ليلا بسبب حالة الطوارئ العسكرية**»[2]، فلم تتحمل "**تفيسة**" آلام الولادة، خاصة وأنه طفلها الأول فتوفيت وهي في عمر الزهور.

وبعد دفن "**تفيسة**" أقيمت وليمة جنازتها، وهي عادة عند سكان قسنطينة «**كانت الجنازة وليمة، هكذا أهل هذه المدينة، جنائزهم كالأعراس من حيث اللباس البنفسجية الخاص، والذي يحضر مع جهاز كل عروس لمثل هذه المناسبات الأليمة، ومن حيث المعزين والزوار والمواسين والمآدب، التي تهيأ لهم، وضعية تضيف لمصيبة الموت الخسارة المادية الفاحشة**».[3]

أمر عظيم هذا الذي أصاب "**كمال العطار**" وفاة زوجته ذات العشرين ربيعا، وطفله الموعود هذه الأمنية التي لم تتحقق، هذا ما أراد الله، وما أراد الله كان.

---

[1] الرواية، ص 84.

[2] الرواية، ص ن.

[3] الرواية، ص 84.

- **موسيقى المالوف:**

المالوف هو أحد أنواع الموسيقى المنتشرة في المغرب العربي خاصة الجزائر وتونس وليبيا، وأصل الكلمة هو "مألوف" بتخفيف الهمزة، وهو مصطلح يطلق على الموسيقى الكلاسيكية بالمغرب العربي بقسميه الدنيوي والديني المتصل بمدائح الطرق الصوفية وهو لا يتقيد في الصياغة بالأوزان والقوافي.[1]

وقد ارتبط هذا النوع من الموسيقى باسم مدينة قسنطينة، وأضحى رمزا من رموزها، فلا يكاد يخلو مكان في قسنطينة من قصائد المالوف التي يحفظها جل القسنطينيين ومنهم كمال الذي ولع بالموسيقى «الموسيقى هذا اللسان الناطق لأكثر من لغة، ورث هذا الولع عن أمه "عتيقة"، فليس أحب لى نفسه أن يصغي إلى أمه وهي تندن قصائد "المالوف" كل مرة، أحب كل أنواع الموسيقى فيما بعد، لكن "المالوف" يأتي في صدارة ما يحب».[2]

ب- المعتقدات:

لكل أمّة معتقداتها الخاصة التي تتم على طريقة تفكيرها والمعتقدات هي مجموعة من المبادئ والأفكار والقيم التي يؤمن بها الفرد في إطار البيئة التي ينتمي إليها.

وفي مدينة قسنطينة مجموعة من المعتقدات الراسخة في الذاكرة الشعبية منذ العصور الغابرة وهي معتقدات متعلقة بتجارب الأسلاف ومعارفهم وخبراتهم، تناقلتها الأجيال باعتبارها مقدسات، منها الاعتقاد بالأولياء الصالحين، الاعتقاد بالطالب...

- **الاعتقاد ببركة الأولياء الصالحين:**

[1] المالوف، ويكيبيديا الموسوعة الحرة . http://ar.wikipedia.org

[2] الرواية، ص34.

تشتهر مدينة قسنطينة بكثرة أوليائها الصالحين منهم "سيدي راشد"، "سيدي مبارك" "سيدي محمد الغراب"، "سيدي مسيد"، وغيرهم من الأولياء الذين عرفوا بنبل الأخلاق وحب الخير وقوة الإيمان، وبعد موتهم أُقيمت لهم أضرحة أضحت فيما بعد قبلة للمهمومين والمتبركين، فهناك من يزور هذه الأضرحة طلبا للشفاء من مرض ما، وآخر طلبا لإنجاب الأطفال، وآخر طالبا للعيش الهنيء وآخر طلبا للزواج...

تتطلب زيارة ضريح الولي الصالح مجموعة من الطقوس يقوم بها سكان قسنطينة منها إقامة الولائم التي تعرف "بالزردة"، حيث يذبح كبش كبير بالقرب من الضريح، وتقوم النسوة بتحضير الأطعمة والمأكولات من لحم ذلك الكبش وتكون عادة "الكسكس" أو الشخشوخة"، ثم توزع على الحاضرين، والباقي يتصدق به على المساكن المجاورة للضريح ومن الطقوس أيضا إحاطة الضريح بالشموع وقراءة آيات قرآنية، وفي المساء تقام "الزردة" بآلات موسيقية كالطبلة والبندير، وأيضا أنغام الفقيرات وقصائد المالوف، وغيرها من الطقوس التي يقصد بها التقرب إلى الولي الصالح.

وها هي والدة "**كمال العطار**" تعد أنه لو شفي ابنها من حب اليهودية "**راشيل**" ستزور مقام "سيدي محمد الغراب" ،«**نذرت أنها لو أشفي من هذا الداء، داء الحب الخطير، لزارت أهم ولي صالح خارج المدينة "سيدي محمد الغراب" طبعا بعد تقديم آيات الطاعة والإعتراف بشمعة ومنديل وطمينة، وطبق كسكسي للمريدين حول قبة "سيدي راشد" الخضراء داخل المدينة**»[1].

[1] الرواية، ص 94.

ومن طقوس زيارة مقام "سيدي محمد الغراب"، التبرك أولا بزيارة مقام سيدي راشد، ثم التحضير للوازم الزيارة المقدسة «**من حناء وطمينة وبخور وشموع من أغلى الأنواع ولباس جديد، وغير ذلك من اللوازم التي لا تكتمل الزيارة إلا بها**».[1]

الولي "سيدي محمد الغراب" «**لو لم يكن نقيا صالحا ووليا من أولياء الله اما نجاه الله من شر الحاكم الجائر، عندما أمر بإلقائه من أعلى قمة جنب الجسر الكبير "كاف الشكارة" وبدل أن يموت شر ميتة مرتطما بصخور الهاوية إلى قاع الوادي، حوله الله فجأة من صفة البشر إلى صفة الطير، حوله إلى غراب ليطير بجناحين، وينجو من الموت المؤكد، لأنه كان مظلوما**"[2]، هذه قصة "محمد الغراب" وكرامته التي أيده الله بها.

ويقال أن المقام موجود في ربوة عالية، توجد فيها بركة تعيش فيها سلاحف عملاقة «**ونقسم الأم يمينا أن تذهب للولي الصالح" محمد الغراب" فتطعم سلاحف بحيرته المباركة**».[3]

- **الاعتقاد بالطالب والحروز:**

من المعتقدات الراسخة أيضا لدى سكان مدينة قسنطينة، الاعتقاد بالطالب وما يكتبه من حروز أو ما يسمى أيضا بـ "الكْتاب" أو "الحجاب"، وهو قطعة من قماش أو ورق أو جلد حيوان ما، تكتب فيه آيات قرآنية أو كلام غير مفهوم بأحرف ورموز غير مفهومة، الغرض منها شفاء الأمراض المختلفة، وهي في معظمها مخالفة لتعاليم الدين الإسلامي.

والدة "**كمال**" اعتبرت حبه لليهودية "**راشيل**" داءا أو علّة من العلل التي لا يمكن التخلص منها إلا بحرز أو كتاب ،«**إن مثل هذا الحب المستحيل مرض وداء يجب أن**

[1] الرواية، ص 95.

[2] الرواية، ص ن.

[3] الرواية، ص 65.

تشفى منه، وبأي شكل من الأشكال، ومن الغد سأذهب إلى الطالب جارنا القديم بالبطحاء، إنه الوحيد الذي تجد عنده علاجا شافيا من هذا المرض، لقد برهن على ذلك في كثير من الحالات»[1]، فالإيمان "بالحروز" اعتقاد راسخ عند المرأة القسنطينية خاصة والجزائرية عامة.

- **الاعتقاد بأن الحامل لا تنظر إلى غير وجه زوجها:**

من المعتقدات التي يؤنس بها أهل قسنطينة أيضا، أن المرأة في فترة الوحم يجب ألا تنظر إلى غير وجه زوجها، حتى تنجب مولودها شبيها لوالده، لأن ذلك يدل على إخلاص المرأة ووفائها لزوجها، «**حتى وهي في حالة الوحم، يستحسن أن لا تنظر لغير زوجها لملامحه، تدقق النظر حتى تأتي له بولد يشبهه، ولا داعي للنظر إلى وجهها بالمرآة، إن ذلك من شانه أن يزع جزءا من الملكية، أما لو أنها نظرت إلى غيره من رجال العائلة حتى ولو كانوا إخوته، لكان ذلك تعديا على ملكيته في النظر، والرغبة التي تنعكس على العمل بوحم غير صادق أو نزيه، بل إنه عند بعضهم نوع من أنواع الخيانة المعنوية»**[2].

ج- الزواج واللباس:

يعتبر الزواج الركن الأساسي لبناء الأسرة التي تعتبر النواة الأساسية لبناء المجتمع بها يصلح ويستمر، وبها يفسد وينهار، وللزواج أهمية بالغة في حياة البشر، فهو الضامن لاستمرار النسل وللحفاظ عليه.

[1] الرواية، ص 44.

[2] الرواية، ص 90.

والزواج هو «**عقد يفيد حل العشرة بين الرجل والمرأة بما يحقق ما يتقاضاه الطبع الإنساني، وتعاونهما مدى الحياة، ويحدد ما لكليهما من حقوق، وما عليهما من واجبات**»[1].

ويقوم الزواج على خمسة أركان" صيغة العقد، الصداق، العاقدان، الشهود، والولي. والحكمة من تشريع الزواج تحقيق المنفعة لكلا الطرفين، بحيث يعم الأمن والخير والسلام على المجتمع ككل، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]

لم يكن زواج "**كمال العطار**" بإرادته لكنه انصاع لرغبة والده المريض، الذي أراد أن يطمئن على وحيده مع امرأة ترعاه وتحفظه قبل موته.

كان "**كمال العطار**" يحب امرأة أخرى غير التي أرادها أهله له، فقد أحب فتاة من فئة اليهود الذين كانوا جيرانهم، اسمها "**راشيل زقزيق**"، تعرف عليها البطل وهو بصدد شراء هدية لأمه بمناسبة عيد ميلادها، ومنذ تلك اللحظة غرق "**كمال**" في بحر الحب وأي حب، حب فتاة يهودية، وهو الأمر الذي لم تقبله والدته ورفضته رفضا قاطعا واعتبرته داء أصيب به ولدها الوحيد، «**اعتبر نفسك مريضا يا كمال، إن مثل هذا الحب المستحيل مرض وداء يجب أن تشفى منه، وبأي شكل من الأشكال**»[3].

حاولت الأم اقناع ولدها بالتخلي عن هذه الفتاة وإخراجها من قلبه، متذرّعة بحجج كثيرة، منها العداوة التي تجمع بين اليهود والمسلمين منذ الأزل، وأن هؤلاء لا يمكن أن يحبوا

---

[1] سعاد سطحي، فقه الأسرة، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة الجزائر، (دط)، 2014، ص 03.

[2] سورة الروم،(21).

[3] الرواية، ص 44.

المسلمين ويتعايشوا معهم «**إن اليهود لعنهم الله في كتابه العزيز، أعداؤنا وأعداء نبينا ودينا منذ الأزل، وإلى أبد الآبدين**»[1]، فكيف له أن يؤسس أسرة من امرأة يهودية؟ وأن يتصاهر مع اليهود؟

فكر "**كمال**" كثيرا في أمر حبه لهذه الفتاة اليهودية، وكيف لوالده أن يتقبل الأمر، فهو يريده أن يتزوج في حياته، قبل أن يغادر هذه الدنيا، فإن أخبره بهذا الأمر فحتما سيقضي عليه قبل الأجل، فقرر "**كمال**" أن يتخلى عن حب حياته، ويلبي رغبة والده بالزواج.

تزوج "**كمال**" وعمره لا يزيد عن العشرين ربيعا[2]، وذلك تلبية لرغبة والده بأن يرى أحفاده قبل موته لكن والده «**مات بعد عام دون أن يرى له لا استقرارا ولا حفيدا ولا نصف حفيد**»[3].

فقد تزوج بالفتاة التي اختارها له والداه، وهي ابنة الجيران "**نفيسة**"، أخت صديقه "**مراد**"، «**كانت جميلة رقيقة، صغيرة على الزواج وعلى أي أمر آخر، كانت كزهرة برية ملونة تقطر ندى وعطرا وخجلا...**»[4].

لم يشأ كمال أن يقيم حفلا كبيرا، الأمر الذي أحزن والداه أما "**نفيسة**" فقد قبلت «**إنها لا تريد إلا ما يريده كمال**»[5]، لكن والدتها "**بهيجة**" لم يعجبها الأمر، ذلك أن كلام الناس لا يرحم، ففي أعراف المجتمع القسنطيني العروس التي لا يقام لها حفل زفاف تكون عانسا أو

---

[1] الرواية، ص 35.
[2] الرواية، ص 29.
[3] الرواية، ص 30.
[4] الرواية، ص 301.
[5] الرواية، ص 80.

ثيبا أو اقترفت خطيئة ما، لكنّ «**ابنتها ليس عانسا ولا ثيبا ولا دميمة ولا اقترفت خطيئة حتى نذهب هكذا لزوجها دون حفل كبير مثل نداتها**»[1].

لكن ذلك لم يمنع من اتّباع العادات والتقاليد، فمن عادات العرس القسنطيني أن تكرم أم العريس كنّتها بقطع من الذهب وهدايا أخرى معبّرة بذلك على فرحتها بزوجة ابنها ،«**كل ذلك لم يثن "عتيقة" أم "كمال" من أن تكرم "نفيسة" عروس أيضا الوحيد بقطع من الذهب وبهدايا معتبرة**»[2].

أما لباس العروس القسنطينية فلا يختلف عن باقي المناطق الأخرى، فهي ترتدي «**ثوب الزفاف الأبيض "والدّراية" المصدفة، وخيط الروح المتوج شعرها الذهبي**»[3].

فالدّراية: هي قطعة قماش شفافة بيضاء، تضعها العروس على رأسها لتغطي وجهها حتى تصل إلى منزل العريس لتقوم أم العريس برفعه عن وجهها والتسليم عليها مع إعطائها كوب حليب وحبة تمر، وذلك من طقوس دخول العروس إلى منزلها الجديد.

أما **خيط الروح:** فهو نوع من الحلي القسنطيني الذي تتزين به العروس، وهو عبارة عن سلسلة ذهبية، تتوسطها ثلاث دوائر مرصّعة بالأحجار الكريمة، تتدلى منها ثلاث دوائر صغيرة، تضعه العروس على جبينها.

[1] الرواية، ص 81.

[2] الرواية، ص نفسها.

[3] الرواية، ص نفسها.

3-أثر صور مدينة قسنطينة في الرواية:

أ- وصف المدينة وتحولاتها:

بعد غياب دام أربعين سنة، ها هو "**كمال العطار**" يعود إلى مدينته قسنطينة وقلبه مليء بالشوق والحنين لكل جسر من جسورها، ولكل حي من أحيائها، ولكل شارع من شوارعها، باختصار اشتاق لكل زاوية من زواياها، فله في كل واحدة منها ذكرى عن حياته عن طفولته، وعن شبابه وعائلته وجيرانه ومعارفه.

لكن منذ وطأت قدما "**كمال**" أرض المدينة صُدم بواقع لم يخطر على باله، فمدينته التي غادرها في الماضي، ليست هي المدينة التي نزل بها، مدينة عاثت بها أيدي الزمان فسادا، «**فها هو رصيف المحطة قد ضاق أكثر، واغبر، وتآكلت حجارته، والساعة المعلقة أما باب الخروج من المحطة قد انكسر زجاجها، وتوقف عقربها الدال على الدقائق بقيت تحسب الساعات فقط، وكأن الزمن قل نشاطه، وركدت حركته الدؤوب**»[1]، وأمّا نوافذ البيوت والشرفات «**وجدها قد عبث بها القدم، لا تجديد ولا ترميم، تراث عمراني يعود إلى بداية القرن التاسع عشر، لكنه لم يصنف في باب التراث الحضاري، بل صنف في باب لا شيء مهما**»[2].

تواصلت رحلة "**كمال العطار**" الاستكشافية لمدينته الجديدة التي أصبحت في نظره ترتدي ثوبا آخر غير الذي أَلِفه من قبل أربعين عاما، ففي كل يوم يكتشف مكانا قد تغير سواء بفعل الزمان أم بفعل أيدي الإنسان، «**فهاهي إحدى المقاهي أمامه الآن، والنادل لا يفتأ يصيح على فناجين مياه ملوثة، سميت مجازا قهوة، وصاحب المقهى ينفخ أوداجه زاعما أنه يساهم في إنعاش الاقتصاد الوطني، بقتل الزمان والإنسان، في بوتقة الكسل**

[1] الرواية، ص 05.

[2] الرواية، ص 10.

والملل والاتكال (...)، أقدمية الرداء الأبيض للنادل في عالم الأوساخ تتحدى الأنظار وتؤذيها"[1].

ثم تذكر المقاهي سابقا عندما كان طفلا صغيرا يذهب مع والده إليها، ثم مع رفاقه فهي «**لم تكن بهذه القذارة واللامبالاة (...)، كان بالأمس روادها لا حول لهم ولا قوة، كان الزمن هو الذي يقتلهم بالبطالة الحقيقية، وعصا الشرطة تؤدبهم، وعينها تراقب تحركاتهم لذلك كانت بعض هذه المقاهي منتدى لأفكار الحركة الوطنية وطموحاتها ومكان لميلاد مختلف الجمعيات الثقافية والرياضية، وحتى الجمعيات ذات الطابع الثوري والسياسي**"[2] فالمقاهي سابقا كانت مكانا نافعا يستغله الشباب في تبادل الأفكار والآراء والنقاشات الهادفة أما اليوم فأضحت مكانا للبطالين والكسالى الذين لا هم لهم سوى الانشغال بالآخرين، وهو الأمر الذي لم يرق لـ "**كمال**".

تأسف "**كمال**" وتحسّر على ما آلت إليه مدينته الحبيبة، فحتى المقاهي لم تبق على حالها، ماذا حصل لهذه المدينة؟ ألم يبق مكان واحد فيها على حاله؟ بلى «**معالم المدينة الحمد لله، أنها بقيت على ما هي عليه، الجامع الذي ساعد في ترميمه "تابليون" في بداية القرن التاسع عشر، والمدرسة الفرنسية الإسلامية، والتي وضع مخطط بنائها مهندس يهودي**"[3]، وأخيرا وجد "**كمال العطار**" مكانا لم يتغير بالمدينة فبعض معالمها بقيت محافظة على صورتها القديمة التي ألفها.

وفي يوم من أيام مكوثه بالمدينة زار مدخل "**الرصيف**" وهي حارة معروفة بكثرة المحلات والطاولات التجارية، كانت قبل أربعين سنة تبيع المنتجات المحلية خاصة ما تنتجه نسوة المدينة من نسيج، ومنهن والدة "**كمال**"، ولكن اليوم أضحت تبيع مختلف أنواع السلع

[1] الرواية، ص 254.

[2] الرواية، ص 254.

[3] الرواية، ص 213.

المستوردة من الخارج، فلا وجود للمحلي أو الوطني بينها "**سلع وبضائع من كل نوع، كل ما يمكن أن تنتجه مصانع الخارج... والخارج ليس من فرنسا وحسب، بل حتى من آسيا وأوروبا كلها، لينكمش تجار الانتاج الوطني، منتظرين زبونا أو زبونين في اليوم غالبا ما يكونون من السياح، وليس من أهل المدينة**"[1].

هذا الأمر الذي تعجب منه "كمال العطار" كيف لأهل المدينة أن يُقبلوا على سلع بلد كان في يوم ما كالشوكة في حلقهم، «**بلد احتل البلاد واستعبد العباد، من قريب أو من بعيد، عدو لم يترك لشعبنا أية فسحة منطقية أو موضوعية أو إنسانية، يعيد من خلالها تصوراته وقناعاته**».[2]

تساءل "**كمال**" «**ما الذي حدث حتى يحصل كل ذلك في أقل من خمسين سنة؟ حتى تتغير المفاهيم والمقاييس والنظم، وتصبح التبعيّة للاستعمار القديم والجديد هي أحسن الاحتمالات وأفضل الاختيارات؟**».[3] فالاستعمار خرج من الوطن مخذولا مهزوما فلماذا هذا الاقبال على منتجاته وسلعه؟، «**هل يعني ذلك أنّ الانسان لا يمكنه الاستغناء عن مستعمره بالأمس؟ أم هي العشرة الطويلة، والتأقلم والتقارب الجغرافي؟ (...)، هل هي رواسب الاستعمار التي تطفو بعد انحساره؟ هل أن الشعوب الضعيفة مهيّأة دوما للاستعمار كل مرة بشكل؟**".[4] فإقبال الجزائريين عامة والقسنطينيين على وجه الخصوص على السلع والبضائع المستوردة خاصة في فرنسا، دليل على أنّ الاستعمار وإن خرج من الجزائر بجيوشه وعساكره وعتاده، فإن آثاره باقية إلى اليوم.

---

[1] الرواية، ص 214.

[2] الرواية، ص ن.

[3] الرواية، ص 216.

[4] الرواية، ص 216.

وليست مخلفات الاستعمار هي فقط ما يهدد المدينة، ولكن أهلها أيضا أضحوا يشكلون خطرا عليها من خلال صفاتهم الذميمة من طمع وجشع ونفاق وجهل وحب للمصلحة الذاتية على حساب المصلحة العامة، كلها صفات انتشرت في جزائر ما بعد الاستقلال، صفات لم يعهدها "**كمال العطار**" في أهل مدينته قبل أربعين سنة.

ها هو اليوم يقف مندهشا لما يحصل بمدينته الغالية، وما يحصل لشعب «**قالوا عنه بعد الاستقلال مباشرة أنه الوحيد البطل، لكن ها هو اليوم يبدو قطيعا من الغنم، يدفع ضريبة كل المراحل الموجعة**».[1]

ويتساءل في أعماق نفسه «**ما الخلل الذي أصاب آلة الحياة في المدينة؟ وملأ الغبار أركانها وزواياها؟ وهذه الطحالب والأشواك والصبار والعليق، الذي ارتوى بماء كان يجدر أن ترتوي به الورود والزهور والرياحين؟...**»؛[2] فالحشرات السامة والطحالب والأشواك والعلّيق في نظر "**كمال العطار**" هم أولئك أصحاب السلطة من ولّاة ووزراء ورؤساء الذين يوهمون الشعب بأنهم سيقضون على كل المشاكل والهموم، ولكن ما إن يضمنوا مناصبهم فلا يعرفون أحدا ولا أحد يهمهم، بل سيزيدون همومهم همّا على هم.

وقف "**كمال العطار**" مذهولا لما أصاب مدينته الغالية، وما آلت إليه وماذا عساه يفعل غير الدعاء لها «**يا رب، ارفع هذا الضّر عن مدينتي، بيدك الأمر كلّه، وأنت على كل شيء قدير**»[3].

---

[1] الرواية، ص 224- 225.

[2] الرواية، ص 225.

[3] الرواية، ص 227.

ب- تحولات المدينة عبر تسلسل الأحداث التاريخية:

تجلي لنا الرواية تحولات طرأت على مدينة قسنطينة من خلال استرجاع أحداث تاريخية وقعت في الماضي، بدءا من تواجد الرومان بالمنطقة، ثم الأتراك، وبعدهم الاستعمار الفرنسي إلى العشرية السوداء وزمن الإرهاب.

فور دخول "**كمال العطار**" إلى المدينة قابله تمثال الرجل الروماني "**قسطنطين**" «**واقفا بتنورته القصيرة وفي خصره خنجر، كان أهم سلاح يمتشقه فارس محارب، ولا بأس من أن يحمل خصره الثاني فأسا، ذلك كل ما يمكن أن يتسلح به محارب في تلك العهود**»[1] فالقائد "**قسطنطين**" يمثل أحد أعلام المدينة وأبطالها، فقد كان له الفضل في ترميمها وإعادة بنائها بعد الدمار الذي حل بها سنة 311م، سميت باسمه، وضع له تمثال لا يزال قائما أمام محطة السكة الحديدية بالمدينة.

ولعل تمثال "**قسطنطين**" لدليل على اهتمام أهل المدينة بالتاريخ، فالتمثال «**كما تركه لم يهدم كما هدم الكثير من أشياء التاريخ الجميلة، لعلهم بدأوا يعرفون قيمة التاريخ؟**»[2].

كما استذكرت الكاتبة شخصيات تاريخية أخرى كان لها الأثر في كتابة تاريخ هذه المدينة مثل "**ماسينيسا**"، "**سيزار**"، "**سيفاقس**"، عشّاقها المقربون، "**وماكساس**" عدوها وآسرها ومشوّه وجهها الوسيم[3]،فالتاريخ جزء لا يتجزأ من حياة الأمم.فهو ماضيها ومحاضرها ومستقبلها فأمة بلا تاريخ لا حياة لها.

كما تجلي لنا الرواية شخصية أخرى كانت لها بصمتها في تاريخ المدينة وهي شخصية "**أحمد باي**" الذي قاوم المحتل الفرنسي، فقد «**كان مجاهدا فذا ضد الاحتلال**

---

[1] الرواية، ص 07.

[2] الرواية، ص 08.

[3] الرواية، ص 14.

الفرنسي، لقد منع جنرالات الاحتلال من الشعور بمتعة النصر ونشوة الاحتلال، وأجل لهم ذلك إلى أكثر من عقدين من الزمن، بعد احتلال السواحل، وأدخل المحتل في حرب ضروس في هذه المدينة والمدن المجاورة بها بالخصوص»[1].

ومن المعالم التي خلّدت العهد التركي في المدينة، جامع "**سيدي عبد المومن**" والذي **«كان في يوم ما، مركزا للعقل السياسي بالنسبة للحكام الأتراك بالمدينة، كل الأوامر والقرارات تصدر عن أئمته وليس للحاكم العثماني سوى التنفيذ»**[2]، فهذا الجامع يعكس حفاظ الأتراك على الدين الإسلامي ونصرته.

لم يتمكن الاحتلال الفرنسي من اقتحام المدينة حتى سنة 1837م، وذلك بفضل تضاريسها وسورها الحصين، ولكن بمجرد دخوله المدينة قام بإحداث تغيرات جذرية من خلال تشييد المباني والأحياء والطرق وغير ذلك من المنشآت التي غيرت وجه المدينة.

كان "**كمال العطار**" من المجاهدين في الثورة، وكذلك والده، ورفيقه "**مراد**"،وكان وطنيا إلى حد النّخاع فقد تخلى عن حب حياته في سبيل الوطن، لأنه اعتبر حبه لليهودية خيانة لوطنه وقضيته، باعتبار أنّ اليهود خونة وموالون للاستعمار، كما تخلى أيضا على دراسته في سبيل ثورة التحرير فقد «**ترك الثانوية مع صديقه مراد وأبناء الجيران والحي جميعا، بأمر من جبهة التحرير الوطني المتمثل والناطق باسم ثورة التحرير، لينصب همم وبالدرجة الأولى على طاعة وتنفيذا أوامر قيادة الثورة»**[3].

كما استرجعت الكاتبة أحداث 8 ماي 1945م، التي بقيت راسخة في أذهان الشعب الجزائري إلى اليوم «**عندما وقعت أحداث "الثامن ماي 1945م" كان "مرادّ وأعيالها، مثل**

[1] الرواية، ص 59.
[2] الرواية، ص 76.
[3] الرواية، ص 59.

صديقه "كمال" ولو أنهما كانا صغيرين، لكن الحالة اليائسة التي كان عليها الناس في المدينة وهم يتعاطفون مع الآلاف من ضحايا المظاهرات السليمة، التي قامت في عدة أنحاء من البلاد، قد تركت بصماتها على قلوب وعقول الأطفال أيضا، وعلى سلوكاتهم وأدركوا أن هذا الوطن ليس بحالة طبيعية أبدا ومنذ أمد بعيد»[1].

ولكن بعد استعمار دام أكثر من 130 سنة منَّ الله على الجزائر بالحرية والاستقلال وجاء اليوم الذي غادر فيه المحتل هذه الأرض الطاهرة فقد تذكر "**كمال العطار**" ذلك اليوم **«يوم الرّحيل، وقد حزم الفرنسيون واليهود حقائبهم مغادرين المدينة، عبر الطائرات والبواخر، حيث أضحت موانئ البلاد تعجّ بهم وبأولادهم، وبما خفّ حمله وغلا ثمنه، وكان ذلك بعد أن اقترفوا أبشع الجرائم في الأهالي، وحتى معارفهم وجيرانهم من المسلمين"**[2].

وما هي إلا بعض سنوات من نيل الجزائر لاستقلالها، حتى يفتك بها زمن موحش سوداوي قد يكون أكثر بشاعة من الاستعمار، زمن ترك بصمته، في تاريخ الوطن، ورهبته في نفوس أهله، وهو زمن العشرية السوداء، لكن الكاتبة لم تصرح علنا بوجود هذا الزمن، بل أشارت إليه من خلال شخصية ابن المجاهدة "**زليخة**" الذي انضم إلى الجماعة التي تسمي نفسها "**الجماعات**"، حيث تحول «**من شاب عادي مسلم بالوراثة والتقاليد، إلى مسلم غير عادي، إن في الشكل أو في المضمون، أصبح يصلي كثيرا ويصوم أكثر، ويدعو الناس وكأنه نبي، ولا يلبس ما يلبس الناس، ولا يسلك سلوكات الناس، ولا يفكر كما يفكر الناس، إنما يفكر كما تملي عليه "الجماعات"»**[3].

ها هي المدينة كغيرها من المدن الجزائرية، تعاني من وباء، و«**ها هي تعيش عذابا من نوع جديد، زواحف مجنّحة استيقظت وعمرها مليون سنة، رجعت لتحط في شعب قضى**

[1] الرواية، ص 76.
[2] الرواية، ص 178.
[3] الرواية، ص 200.

بالأمس القريب على كل زواحف الظلم والعبودية (...)، زواحف جديدة قديمة لم تشفق على شعب عانى الكثير من أجل سلم قصيرة، زواحف قررت فجأة أنّ ما حققه هذا الشعب إنما هو ضلال في ضلال، واستغلّت النفوس الضعيفة، والقلوب الراجفة، والشباب المتأرجح بين المراهقة والمشاكل، لتختار لأسئلته الكثيرة في هذه السن الحرجة، الأجوبة الأكثر تعقيدا وظلامية لنفسه وحياته وعلاقاته».[1]

هذه التحولات وأخرى عرفتها المدينة كما عرفتها الجزائر ككل، تحولات وتغيّرات تركت بصمتها في التارخ ومازالت آثارها إلى اليوم.

ج- نظرة البطل للمدينة:

عاش "**كمال العطار**" مدة أربعين سنة وهو بعيد عن مدينته، هذه المدينة التي ملكت قلبه وروحه وعقله، وها هو اليوم يعود إليها وفي قلبه شوق أربعين سنة، وها هي مدينته الحبيبة كما تعوّد عليها «**بقلبها الكبير كهدير واديها، وأحجارها المدفونة حبات لؤلؤ نادرة تموجات الوادي تخفيها تارة ولتبرزها تارات، غضبا تارة وحنينا وشوقا أكثر من تارات**»[2].

مدينته الحبيبة التي لم يلق مدينة تشبهها على الإطلاق، يقول "**كمال العطار**": «**قابلت ألف مدينة ومدينة لكنها كانت تختلف كل مرة، اختلفت معي مع خطواتي الحالمة إنها لا تحلم حلمي الصغير ولا حبي الكبير، ولا هناء نفسي، وأنا أتجول في الشوارع الرحبة للألف مدينة ومدينة، والجمال يحظنني في كل مكان، فقد كان أضيق زقاق من أزقتك في**

[1] الرواية، ص 204.

[2] الرواية، ص 13.

ذاكرتي يبدو لي أرحب وأجمل وأعطر...»[1]، فجميع تلك المدن التي زارها رغم جمالها وجمال شوارعها واتساعها لم تكن كمدينته التي «**تحسن الحديث والبكاء والأنين**»[2].

عاد "**كمال العطار**" إلى مدينته وهو يخاطبها كمعشوقة فارقته، فكان الفراق أشدّ قسوة على قلبه يقول: «**ها أنا أعود إليك يا مدينة عشقتها العشق الأول ببراءة وجمال العشق الأول، ها أنا أعود إليك وداخل حقيبتي السوداء ستون عاما وستون ذكرى وستون اسما وستون ربيعا، أسست لشيخوخة مبكرة ونهاية أكثر تبكيرا**»[3].

عاد إليها لكنه لم يجدها كما تركها «**إنني لا أراك كما كنت أراك سابقا، هل شخت أنت أيضا مثلي؟ أم أصابك الوهن وداستك آلام اليأس قبل الشيخوخة؟**»[4]،ولكن رغم ذلك فمكانها في قلبه لم يتزعزع حتى وإن شاخت «**لا بأس أتعلمين العاشقة المعشوقة، حتى ووجهك قد تحفرت فيه الندوب الضالة، وتقاطعت فيه المسافات لتنقطع بك الأوصال وتختفي بداياتك من نهاياتك**»[5].

فالعاشق لا يرى نقائص معشوقه، لكنه يراه كاملا لا ينقصه شيء، فمدينة قسنطينة في عيون كمال هي مدينته الفاضلة التي لا يوجد مثلها فها هو يتغزل بها ويقول: «**ساعديني أن تبقي نجمة متلألئة في سراديب قلبي، وفكرة نيرة في طيّات ذهني، وحلما جميلا ممكن التحقيق في خبايا نفسي (...)، ولست أدري بمن أشبهك، بالحسناء الجميلة أم بجنية البحر المخادعة ،أم بكل نساء الأرض بدءا من حواء إلى آخر النساء**»[6].

---

[1] الرواية، ص 17.

[2] الرواية، ص 18.

[3] الرواية، ص ن.

[4] الرواية، ص 19.

[5] الرواية، ص 20.

[6] الرواية، ص 22.

فقد ربط "**كمال**" بين مدينته وبين امرأة حسناء جميلة، حيث أعطاها صفاتها الأنثوية «**حبيبتي، ثديك لم أشهد معه الجوع للحب رغم الجوع للخبز، وحضنك كان أحنّ عليّ من كل الأحضان التي ضمتني فيما بعد رغم الخبز الوفير (...)، فيك أشعر بطفولة طاهرة عذبة، وبحياة نقية سهلة غير معقدة**»[1].

خاطب "**كمال**" مدينته الغالية وباح لها بكل ما سكن قلبه ونفسه تجاهها، طول هذه الفترة من شوق وحنين ولهفة وحب «**بعد هذا البوح نظراتك يا حبيبتي أراها ساهمة، لكنها كافية لبعث الحنين، وأنا أعود إليك طاهرا بلا ذنوب وبلا آثام سوى إثم واحد، أنني رجعت إليك روحا نقية طاهرة بعد أن كانت روحا ملآى بالذنوب، وأنت سبب كل الذنوب لأنك تركتني أفارقك كل هذا الزمن**»[2].

كان "**كمال العطار**" من بين الكثيرين الذيم صنعوا أمجاد هذه المدينة، فقد ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل حريتها واستقرارها، يقول: «**لقد صنعت بآلامي الصغيرة انتصاراتك الكبيرة، عندما كنت أرضى أن تبتلعيني في أزقتك الضيقة مع زمرة من الشباب أصبح همهم اليقظة والوعي بالمكان والزمان، وغرس أقدامهم في تربتك الرطبة واليابسة، وكتابة تاريخك وأحداثك بدمائهم وعذباتهم (...)**»[3]

ولكنّ تضحياته لم تذهب أدراج الرياح، فقد أطال الله في عمره وحقق له أمنيته يقول: «**هذه الأمنية التي تحققت لي من دون رفاقي ورفيقاتي في أنني عشت وحضرت لحظة**

[1] الرواية، ص 23.

[2] الرواية، ص 26.

[3] الرواية، ص 63.

الانتصار لحظة انتصار القضية، وقد لا يدرك المجتمع الذي أعيش فيه أنني حققت تقدما أم لا؟ وأنني عملت لصالحه أم لا؟ لكن أليس التقدم في النهاية هو الرضا»[1].

وها هو اليوم يرى مدينته ووطنه ككل ينعم في الأمن والسلام، فهو ابن هذا الوطن وابن هذه المدينة التي تعطي ولا تأخذ يقول: «**أنا ابن هذه المدينة، أنا ابن تاريخها المشرف وأحلامها الجميلة**»[2]، هذه المدينة العريقة التي وقفت ندّا لغزاتها ومستعمريها، كتبت تاريخها بأحرف من ذهب على يد أبطال عشقوها وعشقوا تربتها، وكانت بالنسبة إليهم الأم الحنون التي لا تبخل على فلذات كبدها لا بالهين ولا بالنفيس، ومن هؤلاء "**كمال العطار**" والذي تمثل له مدينته قسنطينة «**روح الوطن كله**»[3].

د- نظرة المجتمع القسنطيني لليهود:

يعود وجود اليهود في الجزائر إلى أكثر من ألفي سنة(2000) بقي طوالها مستمرا إلى غاية سنة 1962 م، عندما اختارت الأغلبية الساحقة من اليهود الهجرة والرحيل إلى فرنسا خاصة وإلى بلدان أوربية أخرى[4]، وقد انتشرت هذه الفئة خلال هذه الفترة في عدة مدن جزائرية منها مدينة قسنطينة، حيث أصبحت تعتبر من التركيبة السكانية للمجتمع القسنطيني.

فقد كانت قسنطينة بالنسبة لليهود «**مركز إقامتهم الرئيسي في شرق الجزائر، ولعل قول "بينجامين سطورا (Benjamin Stora)" المؤرخ الفرنسي – يهودي الديانة قسنطيني المولد- بأن قسنطينة "أورشليم المغرب"، أقرب إلى الحقيقة بالنظر إلى التنوع الطائفي**

[1] الرواية، ص 84.

[2] الرواية، ص 15.

[3] الرواية، ص 218.

[4] فوزي سعد الله، يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون، شركة دار الأمة، الجزائر، ط4، 2004، ص 05.

والثقافي الذي شهدته مدينة قسنطينة، والذي ازداد بعد السيطرة الفرنسية»[1]، فقسنطينة هي عاصمة لليهود فيما مضى سكنوا حاراتها وجاوروا سكانها، ولعل "**حارة اليهود**" والمقبرة الخاصة بهم "**جبانة اليهود**" خير دليل على استوطانهم مدينة قسنطينة.

وقد تجلت نظرة المجتمع القسنطيني لليهود في الرواية من خلال قضية حب البطل "**كمال العطار**" والفتاة اليهودية "**راشيل زقزيق**"، هذا الحب الذي اعتبره أهله وجيرانه علة وداءا أصيب به فهذا السّر الخطير، هذا الإثم القادم معه، هذه الحقيقة المروعة[2] نزلت كالصاعقة على والدته المسكينة، كيف لوحيدها أن يحب فتاة يهودية تقول: «**يهودية يا كمال؟ ما الذي أصاب الدنيا ولماذا تختارني هذه المصيبة دون الأمهات جميعا، إنها عين حاقدة حاسدة والله العظيم (...) يهودية؟ ولماذا لم تحب كل النساء جميعا وتنسى هذه اليهودية؟**»[3] ولكن كمال أحبها فلا اعتراض على سلطان القلوب[4].

وقد ذكرت الكاتبة في الرواية صفات اليهود الذّميمة وطبائعهم التي عرفوا بها منذ الأزل على لسان والدة كمال "**عتيقة**" التي حاولت إقناعه بشتى السبل أن ينسى هذه الفتاة ونظرة عتيقة لليهود هي نظرة المجتمع القسنطيني ككل، فهم أعداء العرب والمسلمين وأعداء الأنبياء والمرسلين «**إنّ اليهود لعنهم الله في كتابه العزيز، أعداؤنا وأعداء نبينا وديننا منذ**

[1] صبرينة الواعر، يهود مدينة قسنطينة من خلال رحلات الفرنسيين إبان القرن 19م، مجلة عصور الجديدة، ع 18 – عدد خاص بقسنطينة–، أوت 2015، ص 177.

[2] الرواية، ص 34.

[3] الرواية، ص35.

[4] الرواية، ص 32.

الأزل منذ أبد الآبدين»[1]، **«إنهم أهل النفاق منذ سيدنا موسى وعيسى والأنبياء جميعا»**[2].

وها هي والدته تواصل حججها وأحكامها العامة حول اليهود تقول: «**اليهود لا يمكن أن يحبوا عربا مسلمين، هكذا عرفنا عنهم وعرف عنهم أسلافنا لذلك صب الله عليهم لعنته، وسلط عليهم الضياع والتيه في الصحاري، إنهم لا يحبون ولا يعرفون الحب، إنهم سوى الغدر والحقد»**[3].

لم تتقبل والدة كمال هذا الأمر، فكيف ستصبح حماة ليهودية أو جدة لأحفاد يهود من أمهم، ففي أعراف اليهود أن الطفل ينسب إلى أمه تقول: «**ألا تدري أنهم ينسبون الطفل لأمه لأنها التي حملته وجرت دماؤه مع دمائها، ووضعته وأرضعته؟ ومن لا أم له عندهم لا أصل له أبدا حتى لو كان أبوه "الحاخام"»**[4].

كل هذه الحجج التي تذرعت بها والدة كمال لتقنع ولدها بترك الفتاة اليهودية لم تقنعه ففي نظره «**هؤلاء اليهود جيران وأحباب، ونحن وهم جدنا واحد هو إبراهيم الخليل، وهذه العداوات والبغضاء ليست إلا من صنع البشر جيلا بعد جيل، إن الله خالقهم مثلما خلقنا فيهم الطيب وفيهم الخبيث والخير والشرير (...)، إنني الوحيد من تكون حبيبتي ولا أريد أن أعرف سواها ولا شأن لي بأهلها ولا بقومها الذين سرقوا أرض قومي بالمشرق هي وحدها التي تهمني»**[5]، فحب كمال لراشيل أعمى بصره وبصيرته فهمه الوحيد هو الزواج منها، وهو الحلم الذي لم يتحقق أمام رغبة والده المريض في زواج ابنه من ابنة الجيران "**نفيسة**".

---

[1] الرواية، ص 35.

[2] الرواية، ص45.

[3] الرواية، ص72.

[4] الرواية، ص 74.

[5] الرواية، ص73.

بالإضافة إلى نفاق اليهود منذ الأزل وخيانتهم التي عرفوا بها فقد أعلنوا ولاءهم للاستعمار منذ دخوله للجزائر، خاصة بعد صدور مرسوم "**كريميو**" سنة 1870م، والقاضي بتجنيس يهود الجزائر وإعطائهم كامل الحقوق والحريات « **فقد اشتغل اليهود سماسرة وتراجم للاحتلال (...)، وراحوا يضغطون بوسائلهم الربوية الفضيعة على الأهالي تمهيدا للاستيلاء على أراضيهم وعقاراتهم، إلى أن حصلوا في شهر أكتوبر 1870م على قانون "كريميو" ليظهروا عداءهم السافر للعرب ومحاربتهم لهم جهرا وعلانية**»[1].

كما كان لهم أيضا دور فعال في سيطرة الاستعمار على الأهالي الذين كانوا إخوانهم وجيرانهم بالأمس القريب.

خلاصة:

دارت أحداث رواية "**جسر للبوح وآخر للحنين**" للأديبة الجزائرية "**زهور ونيسي**" حول بطل الرواية "**كمال العطار**" الذي عاد إلى مدينة قسنطينة بعد أربعين سنة، وأخذ يصول ويجول في المدينة مسترجعًا ماضيه وماضي مدينته الحافل الذي آثره على حاضرها السلبي.

صوّرت الرواية مدينة قسنطينة بمختلف معالمها الحضارية والتبغرافية، حيث تجلت لنا بعض جسورها، وأبوابها مثل باب الجابية وباب القنطرة، وأحياؤها مثل سيدي جليس وحي السويقة وبناياتها العمرانية المختلفة ومناظرها الطبيعية الساحرة. كما تجلى لنا أيضا جانب من تراثها الثقافي تمثل في عاداتها ومعتقداتها، كما صوّرت الرواية أيضا جانبا من عقلية المجتمع القسنطيني وطريقة تفكيره خاصة فيما تعلق بنظرته إلى اليهود.

[1] الرواية، ص 54.

خاتمة

انصبّ اهتمامنا في هذا البحث على رصد حضور مدينة قسنطينة في رواية "**جسر للبوح وآخر للحنين**"، حيث عرضنا تجليات مختلف معالمها الحضارية والتوبغرافية، وكذا بعض عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها التي ميّزتها عن باقي المدن الجزائرية، مستعينين في ذلك بالمنهج الأنثروبولوجي ومنه توصلنا إلى عدة نتائج تمثلت فما يلي:

- علم الأنثروبولوجيا علم يختص بدراسة الإنسان من مختلف جوانبه: البيولوجية والاجتماعية والثقافية.
- ظهرت بواكير الفكر الأنثروبولوجي عند الإغريق والرومان ثم تطور في العصور الوسطى ليعرف أوجّه في عصر النهضة.
- يتفرع علم الأنثروبولوجيا إلى ثلاثة فروع رئيسية هي: الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية.
- علاقة الأنثروبولوجيا بالأدب علاقة تأثير متبادل، إذ يشكل الأدب مادة خصبة ينهل منها الباحث الأنثروبولوجي.
- حظيت المدينة بمكانة هامة في الأدب العربي، إذ تعتبر من أبرز المواضيع التي اهتم بها الأدباء العرب من شعراء وروائيين.
- مدينة قسنطينة من أبرز المدن الجزائرية التي سجلت حضورا مميزا في الأدب الجزائري عموما والرواية بشكل خاص، وذلك لما تتميز به هذه المدينة من مميزات وخصوصيات ميزتها عن باقي المدن الجزائرية.
- كشفت رواية "**جسر للبوح وآخر للحنين**" عن حنين الكاتبة إلى ماضي المدينة ومجدها خاصة أيام الثورة التحريرية، والكفاح ضد المستعمر.
- تعلّق الكاتبة بمدينة قسنطينة وتأثرها بالتراث الشعبي القسنطيني، حيث صورت لنا عادات وتقاليد المدينة التي لازالت تحافظ عليها إلى اليوم مثل: عادة الختان، وعادة الصيام، وعادة شرب القهوة بماء الزهر... إلخ.

- وكذا بعض المعتقدات السائدة في المجتمع القسنطيني خاصة الاعتقاد ببركة الأولياء الصالحين.
- تقديس المجتمع القسنطيني لرابطة الزّواج، وذلك من خلال اختيار الزوجة الصالحة المحافظة على دينها وعرضها.
- النظرة السلبية لفئة اليهود المتواجدة بقسنطينة، ونفور المجتمع القسنطيني منها، وذلك بسبب الصفات والأخلاق السيئة التي تميزوا بها على مر العصور كالخيانة، والنّفاق، وبُغض العرب المسلمين.

وفي الأخير نتمنى أن نكون قد وفقنا ولو بشكل بسيط في إثراء الموضوع، ونتمنى أن يكون البحث فاتحة عهد للدراسات المستقبلية، خاصة وأنه قابل للدراسة من زوايا أخرى لم نتطرق إليها.

ملحق

تدور أحداث رواية "**جسر للبوح وآخر للحنين**"، حول عودة البطل "**كمال عطار**" إلى مدينة قسنطينة بعد غياب دام أربعين سنة، وعاد وقلبه مليء بالشوق والحنين إلى مسقط رأسه، فبمجرد نزوله من القطار راح يصول ويجول في وشوارع وأحياء المدينة مستذكرا ذكريات طفولته وشبابه وسط أهله وجيرانه وأصدقائه بين أحضان مدينته الغالية قسنطينة، هذا الماضي الجميل الذي آثاره على حاضر مدنس أضحت تعيشه المدينة، فقد لاحظ كمال أن الكثير من الأشياء قد تغيرت في مدينته بدءا بسكانها وعقلياتهم وصولا إلى مبانيها ومعالمها التي تحطمت وصارت ركاما، وغيرها من التحولات التي شهدتها المدينة، ما جعله يصاب بحزن وحسرة على ما آلت إليه مدينته الحبيبة.

كان "**كمال العطار**" شديد التعلق بوالدته كيف لا وهو وحيدها، فقد كانت بالنسبة إليه الأم والأخت والصديقة، وكان له صديق بمثابة الأخ الذي لم تنجبه أمه واسمه "**مراد**" كبرا معا وتقاسما مقاعد الدراسة، ثم انتقلا إلى صفوف الثورة لمحاربة المستعمر، لكن "**مراد**" وافته المنية أثناء الالتحاق بالعمل الثوري خارج المدينة.

وكأي شاب في عمره، فقد عاش "**كمال**" قصة حب، ولكن لسوء حظه وقع في حب فتاة يهودية اسمها "**راشيل زقزيق**"، وهو الأمر الذي رفضته والدته، فكانت له بالمرصاد، فعزمت على تزويجه من أخت "**مراد**" والتي تدعى "**نفيسة**"، وطبعا بعد مشاورة زوجها والد "**كمال**" الذي رغب في تزويج وحيده ورؤية أحفاده قبل أن يأخذ الله أمانته، ولكن تهب الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد توفي والده ولم ينعم برؤية حفيد، وكذلك "**نفيسة**" عندما عسرت ولادتها بطفلها الأول.

فقد "**كمال**" عائلته الواحد تلو الآخر، وبقي وحيدا تائها في عالم الوحدة والضياع، مما جعله يتعلق بمدينته حيث اعتبرها الأم والزوجة والرفيقة والعائلة.

فعلى الرغم من تعدد المدن التي زارها إلا أن صورة مدينته بقيت راسخة في ذاكرته، فعاد إليها عبر رحلة جسرين، جسر للبوح يبوح فيه عما أصاب مدينته والمأساة التي حلت بها، وآخر للحنين حيث حن إلى ماضيه وماضي مدينته المليء بالذكريات الجميلة.

"**زهور ونيسي**" كاتبة جزائرية وسياسية شهيرة، ولدت عام 1936م في مدينة قسنطينة حصلت على البكالوريوس في الأدب والفلسفة، درست علم الاجتماع ثم عملت في تدريس الإعلام.

كانت "**زهور ونيسي**" مجاهدة في صفوف ثورة التحرير، وحملت وسام المقاوم، وشغلت منصب عضو بالمجلس الشعبي الوطني في الفترة من 1977م إلى 1982م، وفي عام 1982 أصبحت سكرتيرة الدولة في الشؤون الاجتماعية، ثم وزيرة الحماية الاجتماعية، لتكون أول سيدة تتولى منصب وزيرة في تاريخ الجزائر، ثم وزيرة التربية الوطنية في عام 1986م، ثم عادت إلى الواجهة السياسية كعضو في مجلس الأمة في ديسمبر عام 1997م.

عملت "**زهور ونيسي**" في الصحافة وترأست تحرير أول مجلة انسانية تعنى بشؤون المرأة الجزائرية، وساهمت في تأسيس العديد من المؤسسات والهيئات الاتحادات، كان في طليعتها الاتحاد النسائي الجزائري، واتحاد الكتاب، واتحاد الصحفيين الجزائريين، كما لعبت دورا كبيرا في تعريب الإعلام الجزائري.

تعتبر من رائدات الأدب الجزائري، وكتبت أول رواية لكاتبة جزائرية باللغة العربية وقد نالت مجموعتها القصصية الأولى "الرصيف النائم" في 1967م نالت إعجاب الناقدة والكاتبة المصرية الشهيرة "سهير القلماوي"، وقد وصفتها بـ "الثائرة التي ألهمتها الثورة سر الحياة"[1]

أهم مؤلفاتها:

- الرصيف النائم (قصص) 1967م.
- على الشاطئ الآخر (قصص) 1974م.
- من يوميات مدرسة (رواية) 1978م.

[1] موقع كتابات http://kitabat.com

- لونجا والغول (رواية) 1996م.
- عجائز القمر (قصص) 1996.
- روسيكادا (قصص) 1999م.[1]

[1] زهور ونيسي، ويكيبيديا الموسعة الحرة http://ar.wikipedia.org

قائمة المصادر

والمراجع

القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع، من طريق الشاطبية، شرفت بطباعته دار الوطن للنشر والتوزيع، 2015م.

أولا: المصادر:

01- زهور ونيسي، جسر للبوح وآخر للحنين، منشورات زرياب، (دط)، (دت).

ثانيا: المعاجم:

02- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تهذيب اللغة ، مادة (مدن)، تح: يعقوب عبد النبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر ،(دط)، (دت).

03- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، مادة (مدن)، تح: أمين محمد عبد الوهاب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1999.

04- مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (مدن)، مطبعة القاهرة، مصر (دط)، 1991.

05- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، مج 4، ط2، 1995.

ثالثا: المراجع:

أ_ المراجع بالعربية:

06- إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي – الجزائر أنموذجا-، (1925- 1962) دار هومة، ط2، 2012.

07- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب،الجزائر ط5، 2007.

08- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار الفكر (دط) (دت).

09- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد (رواية).

10- أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، لبنان، ط2 2003.

11- أحلام مستغانمي، فوضى الحواس.

12- حسن حمودة، الرواية والمدينة: نماذج من كتاب الستينيات في مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2000.

13- الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2008.

14- حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا (فصول في تاريخ علم الإنسان)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1986.

15- ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، (دط)، (دت).

16- زكي محمد إسماعيل، الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي، دار الزهراء، الرياض، ط2 2002.

17- سليمان الصيد، نفع الأزهار عما في قسنطينة من الأخيار، المطبعة الجزائرية الجزائر، ط1، 1994.

18- صلاح صالح، المدينة الضحلة يثرب المدينة في الرواية العربية، منشورات الهيئة العامة الدورية للكتاب، دمشق، سوريا، (دط)، 2004.

19- الطاهر وطار، الزلزال (رواية).

20- عبد الرحمن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: أ.م. كاترمير، ج1، مج1، مكتبة لبنان، بيروت، (دط)، 1992.

21- عبد الله عبد الغني غانم، الأنثروبولوجيا الثقافية، المكتب الجامعي العربي، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006.

22- عبد المعطي حجازي، ديوان مدينة بلا قلب، منتديات مكتبة العرب، (دط)، (دت).

23- عبد الوهاب جعفر، البنيوية في الأنثروبولوجيا وموقف سارتر منها، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، (دط)، 1980.

24- عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، (ط3)، (دت).

25- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب دمشق، سوريا، (دط)، 2004.

26- فاتن محمد شريف، الأسرة والقرابة : دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الاسكندرية، مصر، ط1، 2006.

27- فوزي سعد الله، يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون، شركة دار الأمة، الجزائر، ط4، 2004.

28- قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، (دط)،2001.

29- ماهر شعبان الباري، التذوق الأدبي "طبيعته، نظرياته، مقوماته، معاييره، مقاييسه"، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2009.

30- محمد الجوهري وآخرون، الأنثروبولوجيا الاجتماعية (قضاء الموضوع والمنهج)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، (دط)، 2004.

31- محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، دار المعرفة الجامعية القاهرة، مصر، (دط)، 2007.

32- محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1998.

33- محمد الهادي لعروق، مدينة قسنطينة، دراسة في جغرافية العمران، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط)، 1984.

34- مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011.

35- نبيل الحسني، الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، كربلاء، العراق، ط1، 2009.

36- يحي مرسي عبد بدر، أصول علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، ج2، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط2، 2007.

ب_ المراجع المترجمة:

37- بيرتي ج بيلتو، دراسة الأنثروبولوجيا المفهوم والتاريخ، تر: كاظم سعد الدين، بيت الحكمة، بغداد، العراق، ط1، 2010.

38- فيليب لابورت، تولراجان، وبيار فارنيه، إثنولوجيا، أنثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

39- مارك أوجيه جان وبول كولاين، الأنثروبولوجيا، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

ج -المراجع الأجنبية:

Karol Goskrzynski,et autres, Le dictionnaires Le Robert , avenue Pierre-de- Coubertin,paris, 2011, p20.

رابعا: الصحف والمجلات:

40- أحمد أبوزيد، الرواية الأنثروبولوجية بين الواقع الإثنوغرافي والخيال الإبداعي، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع4،3، م23 مارس، أفريل 1996.

41- أحمد جاسم الحسين، الرواية العربية الجديدة وخصوصية المكان -قراءة في روايات "رجاء عالم"-، مجلة جامعة دمشق، مج: 25، ع 1 و2، 2009.

42- أحمد قيطون وعمار حلاسة، تيمة المدينة في الخطاب لشعري الجزائري المعاصر قسم اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، مجلة مقاليد، ع6، 2014.

43- أزهري مصطفى صادق، الأنثروبولوجيا الطبيعية والثقافية (علم الإنسان الطبيعي والثقافي)، أثر 214، جامعة الملك سعود، السعودية، 1433.

44- خيرة حربو، ثنائية المدينة والريف في شعر بدر شاكر السياب، مجلة جامعة بابل العلوم الإنسانية، مج 22، ع 2، 2014. صبرينة الواعر، يهود مدينة قسنطينة من خلال رحلات الفرنسيين إبان القرن التاسع عشر، مجلة عصور الجديدة، ع 18 – عدد خاص بقسنطينة–، أوت 2015.

45- ز. فتيحة، بين أزقتها القديمة وشوارعها الضيقة السويقة ذاكرة قسنطينة التي لا تنسى مقال نشر في جريدة البلاد يوم 2010/11/6، موقع جزايرس.

46- فاطمة عطفة، محاضرة ترصد حضور المدينة في الأدب، جريدة الاتحاد، أبو ظبي الثلاثاء 20 مايو 2004، تاريخ الاطلاع: 27 يناير 2018.

47- محمد الصغير غانم، قسنطينة عبر تاريخها القديم، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، 1999.

48- ز. الزبير، مساجد قسنطينة، مقال شرفي جريدة المساء يوم 2009/05/29،موقع جزايرس.

خامسا: الرسائل الجامعية:

49- أحلام صابرينة طرشي، صناعة النحاس بقسنطينة (دراسة فنية)، مخطوط مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2012.

50- باية غيبوب ، الشخصية الأنثروبولوجية الفجائية في رواية مائة عام من العزلة لغابريال غارسيا ماركيز، الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، (دط)، 2012.

51- سعاد سطحي، فقه الأسرة، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2014.

52- سليم بتقة، الريف في الرواية الجزائرية –دراسة تحليلية مقارنة–، مخطوط رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2010.

53- محمد صالح خرفي، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، مخطوط أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه العلوم، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.

54- يمينة سعودي، الحياة الأدبية في قسنطينة (خلال الفترة العثمانية)، مخطوط بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، 2006.

سادسا: المحاضرات:

55- خواجة عبد العزيز بن محمد، محاضرات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، محاضرة موجهة لطلبة العلوم الإنسانية، جامعة غرداية، الجزائر، السنة الجامعية 2014- 2015.

سابعا: المواقع الإلكترونية:

56- الحي، ويكيبيديا الموسوعة الحرة. http://ar.wikipedia.org

57- علي حمودين، الأدب العربي المعاصر: ملامح وقضايا، جامعة قاصدي مرباح، قسم اللغة والأدب العربيhttp://elearn.univ_ourgla.dz

58- قسنطينة، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، http://ar.wikipedia.org.

59- المالوف، ويكيبيديا الموسوعة الحرة . http://ar.wikipedia.org

فهرس الموضوعات

مقدمة..... أ- د

مدخل: علم الأنثروبولوجيا مفهومه ونشأته

تمهيد..... 02

أولا: مفهوم الأنثروبولوجيا.....03

أ- المفهوم اللغوي..... 03

ب-المفهوم الاصطلاحي..... 04

ثانيا: المسارات التاريخية للأنثروبولوجيا..... 06

1- الأنثروبولوجيا في العصر القديم..... 06

1-1- الأنثروبولوجيا عند الإغريق (اليونانيين القدماء)..... 07

1-2- عند الرومان..... 09

2- الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى..... 10

2-1- العصور الوسطى في أوروبا..... 10

2-2- العصور الوسطى عند العرب..... 11

3- الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية..... 13

ثالثا: فروع الأنثروبولوجيا..... 14

أ- الأنثروبولوجيا الفيزيقية anthropology physical..... 15

ب- بالأنثروبولوجيا الاجتماعية social anthropology..... 17

ج- الأنثروبولوجيا الثقافية cultural anthropology..... 18

رابعا: علاقة الأنثروبولوجيا بالأدب..... 23

خلاصة..... 26

الفصل الأول: مدينة قسنطينة في الأدب الجزائري

تمهيد.....28
تعريف المدينة..... 29
أ- تعريف المدينة لغة..... 29
ب-تعريف المدينة اصطلاحا..... 31
1- صورة المدينة في الأدب العربي القديم..... 32
2- المدينة في الأدب العربي الحديث..... 35
3- مدينة قسنطينة في الأدب الجزائري..... 44
4- التعريف بمدينة قسنطينة..... 45
أ- موقع المدينة وطبيعتها..... 45
ب-أصل التسمية..... 46
5- أهم المحطات في تاريخ قسنطينة..... 49
6- صورة قسنطينة في الأدب الجزائري..... 53
أ- قسنطينة في الشعر الجزائري..... 53
ب-قسنطينة في الرواية الجزائرية..... 54
ج- قسنطينة في أدب الرحلات..... 58
خلاصة..... 61

الفصل الثاني: صورة قسنطينة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين

1-الصورة الطوبوغرافية لمدينة قسنطينة..... 63
أ- الأحياء..... 63
ب-المعالم الدينية..... 67
ج-البناءات والعمران..... 69
د- المناظر الطبيعية..... 73
2-الصورة البشرية لمدينة قسنطينة..... 75
أ- العادات والتقاليد..... 75
ب-المعتقدات..... 81
ج-الزواج واللباس..... 84
3-أثر صور مدينة قسنطينة في الرواية..... 88
أ- وصف المدينة وتحولاتها..... 91
ب-تحولات المدينة عبر تسلسل الأحداث التاريخية..... 92
ج-نظرة البطل للمدينة..... 95
د- نظرة المجتمع القسنطيني لليهود..... 98

خاتمة..... 103

ملحق.....104

قائمة المصادر والمراجع.....110

فهرس الموضوعات.....117

ملخص البحث :

تناولنا في هذا البحث المتواضع صورة مدينة قسنطينة في رواية "**جسر للبوح وآخر للحنين**" للأديبة الجزائرية "زهور ونيسي"؛ فحاولنا رصد حضور المدينة في الرواية من خلال دراستها وفق المنهج الأنثروبولوجي.

وقد آثرنا دراسة هذه الرواية لأنها صوّرت تاريخ قسنطينة ومعالمها مثل الجسور، والأبواب، والأحياء، وتراثها الثقافي خاصة عاداتها وتقاليدها مثل عادة الختان، وعادة شرب القهوة بماء الزهر، وغيرها من العادات التي تميزها عن باقي المدن الجزائرية، فكانت الرواية مرآة عاكسة لصورة مدينة "الجسور المعلقة".

Résumie:

Nous avans traité dans cette modeste recherche une vue sur la ville de Constantine dans le roman « **pont vers le temple et un autre vers la nostalgie** » de l'écrivaine algérienne « **Zhor Wnissi** », Nous avons essayé de surveiller la présence de la ville dans le roman selon l'approche anthropologique.

Et nous avons choisi l'étude de ce roman parce qu'il capture l'histoire de Constantine et ses caractéristiques et son patrimoine cultuel en particulier les coutumes et les traditions qui les distinguent des autre villes algériennes. Donc ce roman était un miroir réfléchissant de la ville des « ponts suspendus ».